الفصل السابع

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «١٣ – ٢٣هـ = ٦٤٤م"

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى العدوى الملقب بالفاروق يلتقى برسول الله ﷺ فى الجد السابع.

ولد بمكة بعد مولد النبى ﷺ بثلاث عشرة سنة، ونشأ فى بيت اشتهر بالسيادة والنجدة، والشرف والصدق والأمانة، وقول الحق، وكان رضى الله تعالى عنه يحب الجد من الأمور، ويكره المهازل، ويأبى الدنايا.

وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما، قال: كان أبيض تعلوه حمرة طوالا أصلع أشيب، وقال غيره كان أمهق[١] طوالا أصلع آدم أعسر أيسر[٢] وكان جسيما فى عارضية خفة، وسيلته[٣] كبيرة، وفى أطرافها صهبة[٤]، إذ حزبه أمر فتلها، وكان يسرع فى مشيته، ويثبت على فرسه، فكأنما خلق على ظهره[٥].

ومكانته فى الجاهلية أسندت إلى وظيفة السفارة، فكان سفيرا لقريش فى الجاهلية إذا وقعت بينها وبين غيرها من القبائل حرب أو منافرة أو مفاخرة.

فقد كان عادلا لأنه ورث القضاء والتحكيم من قبيلته.

ولما بعث النبى ﷺ لم يكن عمر ممن أسره فى الإسلام بل كان فى أول أمره حربا على المسلمين، شديدا عليهم عنيفا، ولما أراد الله تبارك وتعالى هدايته شرح صدره للإسلام فى السنة السادسة للبعثة، وقصة إسلامه مشهورة فى كتب السيرة كلها.

بعد لقائه بأخته وزوجها وسمع قرآنا عندهما وقد شرح الله صدره للإسلام توجه إلى الرسول ﷺ، فى بيت الأرقم وأعلن إسلامه، فكان ذلك قوة وفتحا ونصرا كبيرا للدعوة الإسلامية،

(١) أمهق خالص البياض.

(٢) يستعمل كلتا يديه.

(٣) السيلة بالتحريك طرف الشارب.

(٤) سواد فى حمرة.

(٥) تاريخ الإسلام للذهبى ج٣ ص ١٤٣ ، ١٤٤.

كما كان حدثا اهتزت له قلوب قريش هما وفزعا وحزنا على مستقبل موقفهم من الدعوة الإسلامية، بل إن إسلامه روع أئمة الكفر، وصدع جبهة الشرك.

وقد صحب رسول الله ﷺ فأحسن صحبته، وبذل فى نصرته أعز ما يملك ووقف حياته فى سبيل إعزاز الدين ورفعته، وهو الوحيد من المهاجرين الذين خرج من مكة علانية وغيره من المسلمين كانوا يتسللون خفية من إيذاء المشركين.

وكان رضى الله عنه فى المدينة مع رسول الله ﷺ كما كان فى مكة شديدا على المخلفين من المنافقين واليهود مراقبا لحركاتهم، فإذا رأى أو ظهر من أحدهم سوء نية أو خروجا على حد الأدب خاصة مع رسول الله ﷺ، عرفه مقام الرسول ﷺ، وألقى عليه درسا فى الآداب الاجتماعية وتزوج الرسول ﷺ ابنته حفصة، وظل موضع تقدير الرسول ﷺ وجميع المسلمين، وكانت هيبته تملأ القلوب.

يروى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه أنه قال: "استأذن عمر على رسول الله ﷺ، وعنده نساء من قريش يكلمنه عالية أصواتهن فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب: فأذن له رسول الله ﷺ، ورسول الله يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ عجبت من هؤلاء اللائى كن عندى، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر: فأنت يا رسول الله أحق أن يهبن، ثم قال عمر: أى عدوات أنفسهن! ! أتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ، قلن: نعم، أنت أغلظ وأفظ من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: "والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك""[1] وكان كثيرا ما يشير على الرسول ﷺ بالرأى فينزل القرآن الكريم موافقا لما أشار به وهذا هو ما عرف عنه بالإلهام.

يروى مسلم عن عائشة عن النبى ﷺ أنه كان يقول: "قد يكون فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم" قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون[2].

كما روى عن ابن عباء رضى الله عنهما قال: قال رسول الله "إن الله تعالى باهى بأهل عرفة عامة، وباهى بعمر خاصة"[3].

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج١٥ ص ١٦٤ ، ١٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٦.

(٣) أخرجه الطبرى بإسناد حسن وهامش تاريخ الإسلام ج٣ ص ١٤٧.

وقال على رضى الله عنه وكان بالكوفة على منبرها فى ملأ من الناس، أيام خلافته "خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وخيرها بعد أبى بكر عمر".

هذا بالإضافة إلى ما قاله ابن مسعود رضى الله تعالى عنه "إذا ذكر الصالحون فحى هلا بعمر إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله تعالى، وأفقهنا فى دين الله"[1].

وفى رواية عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ "لو كان نبى بعدى لكان عمر"[2].

وقد ثبت أنه وافق الوحى فى كثير من أحكام الشريعة الإسلامية ومنها:

١ - **تحريم الخمر:** فقد نزلت آيتان فى الخمر لتوضيح أضرارها وسوء أثرها على سلوك المسلم تمهيدا لتحريمها، هاتان الآيتان هما ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[سورة البقرة الآية: ٩-٢١] وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [سورة النساء: الآية: ٤٣] ولكن عمر تطلعت نفسه إلى التحريم القاطع، فدعا الله سبحانه وتعالى وقال: "اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا" فنزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائده: الآية: ٩٠] وهذه هى آية التحريم التى انتهى المسلمون بسببها عن شرب الخمر فى كل حالة وحين.

٢ - **حجاب النساء:** كان رضى الله تعالى عنه شديد الغيرة على نساء النبى ﷺ أمهات المؤمنين بخاصة، وعلى نساء المؤمنين عامة، وكان يتمنى من قلبه ألا يرى نساء النبى ﷺ أحد، لأن النفس البشرية لا تخلو من خائنة الأعين، ومن خواطر السوء، فإن بعض القلوب قلوب مريضة لا تستطيع مقاومة غواية الشيطان ومن العيون عيون خائنة، لذلك تحدث مع رسول الله ﷺ قائلا: يا رسول الله! إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن واستمر يتحدث فى شأن الحجاب، وأكثر فى ذلك حتى قالت زينب زوجة الرسول ﷺ "أتنفذ أمرك فينا يا بن الخطاب والوحى ينزل علينا فى بيوتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[3]. [سورة الاحزاب: الآية: ٥٣]

(١) المرجع السابق.

(٢) تاريخ الإسلام ج٣ رواه عن الترمذى.

(٣) وكان نزولها فى شهر ذى القعدة سنة ٥ هـ. صفوة البيان ج٢ ص ١٩٠.

٣ – وكان له رأى فى أسرى بدر، وفى الصلاة على المنافقين وغير ذلك من الإلهامات التى تدل على نفاذ البصيرة، يقول رسول الله ﷺ "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه" رواه جماعة عن نافع عن ابن عمر.

١ - مبايعة عمر:

استقر رأى أبى بكر على استخلاف عمر لكنه إن فرض ذلك على المسلمين فقد يثقل أمره عليهم وقد يبرمون به [١]، فأخذ يستشير كبار الصحابة ويستوثق منهم لعمر ويوطنهم على استخلافه حتى لا يكون فى نفس واحد منهم حفيظة على خليفته إن تولى بغير رضاه، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف وقال له: أخبرنى عن عمر فقال عبد الرحمن: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلمنا به، قال أبو بكر: وإن، فقال عبد الرحمن: يا خليفة رسول الله هو والله هو أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة. قال أبو بكر: ذلك لأنه يرانى رقيقا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرا مما هو عليه، ويا أبا محمد قد رمقته فرأيته إذا غضبت على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه وإذا لنت له أرانى الشدة عليه ولا تذكر يا أبا محمد مما قلته لك شيئا. قال: نعم.

ثم دعا عثمان بن عفان وقال له: يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر قال عثمان: أنت أعلم به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله. فقال: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته وإنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله يا أبا عبد الله، والله لو تركته ما عدوتك، ولعلى تاركه، الخيرة له ألا يلى من أموركم شيئا ولوددت أنى كنت خلوا من أموركم وإن كنت فيما مضى من سلفكم: وطلب منه أن يكتم هذا فقال: أفعل.

ثم استشار بعدهما سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار فكلهم قال خيرا وأثنى عليه.

ويروى أنه سأل عليا فقال: عمر عند ظنك به ورأيك فيه إن وليته، مع أنه كان واليا معك تحظى برأيه وتأخذ منه فامض لما تريد وده مخاطبة الرجل فإن لم يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عندت، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير.

---

(١) يروى بعض المؤرخين أن أبا بكر جمع نخبة من أهل الرأى ورشح من رشح ولم يؤيد هو أحدا من المرشحين وقال لهم فيما قال: قد أطلق الله إيمانكم من بيعنى وحل عنكم عقدتى ورد عليكم أمركم فأمرؤا عليكم من أحببتم فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى. فلم يتفقوا على واحد منهم ورجعوا إليه يقولون: اختر لنا يا خليفة رسول الله. فاستمهلهم حتى ينظر لله ولدينه وعباده فأرسل إلى عثمان يستشيره فأشار عليه بعمر، فأمره بكتابة عهد الإمارة له.

سمع بعض الصحابة بمشاورات أبى بكر وأنه يريد استخلاف عمر فدخلوا على أبى بكرن وقال طلحة بن عبيد الله: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم بعد لقائك ربك؟

فقال أبو بكر: أجلسونى، فلما أجلسوه وجه الحديث إلى القوم الذين دخلوا عليه فقال: أبا لله تخوفني؟ خاب من تزود من أمركم بظلم، أقول: اللهم إنى استخلفت على أهلك خير أهلك، أبلغ عنى ما قلت من ورائك: ثم اضطجع فانصرف عنه القوم، ولم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن عوف، وقيل: بل خرج معهم ثم عاد إليه صبح اليوم التالى فقال وقد جلس إلى جانب سريره: أصبحت والحمد لله بارئا. فقال أبو بكر: أتراه؟ قال: نعم، فسكت أبو بكر وسكت عبد الرحمن هنيهة ثم تحدث الصديق وكأنما عناه ما حدث بالأمس، إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى فكلكم ورغم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه. فقال له عبد الرحمن: خفض عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك إنما الناس فى أمرك بين رجلين، إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو مشير عليك وصاحبك كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا خيرا ولم تزل صالحا مصلحا.

ولما اطمأن أبو بكر إلى استخلاف عمر دعا عثمان بن عفان وكان يكتب له فقال اكتب وأملاه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب.

إنى أستخلف عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فإن بر وعدل فذلك رأيى فيه وعلمى به، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[سورة الشعراء: الآية ٢٢٧] ثم ختم الكتاب.

ويرى الطبرى وابن الأثير أنه بعد أن استدعى عثمان وأملى عليه الديباجة إلى قوله أما بعد، أغمى عليه فكتب عثمان فإنى أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا ثم أفاق أبو بكر فقال أقرأ علي، فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال جزاك الله خيرا عن الإسلام وأهله أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسى فى غشيتى؟ قال عثمان: نعم، وأقر الصديق ما كتب.

ثم خرج أبو بكر وزوجته أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم: أترضون بمن استخلفت

عليكم فإنى والله ما آلوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة، وإنى وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا، سمعنا وأطعنا [١].

ويروى أن عثمان خرج إلى الناس بعد أن أملى أبو بكر وصيته وختمها فأبرز لهم الكتاب مختوما، وقال لهم: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ قالوا: نعم[٢]، ولعل عثمان خرج أولا ليرى الناس بصفة عامة، فلما أجابوه بالإيجاب خرج لهم الصديق فشرح مقدار عمله، والدوافع إليه فبايعوا عمر بن الخطاب.

ولما بايع الناس عمر دعاه أبو بكر فأوصاه بما أوصاه به على تعبير ابن سعد فى الطبقات وقد أورد بعض هذه الوصايا ابن الأثير فى كتابه الكامل ج٢ ص ٣٩٢، ٣٩٣، وبعد أن اطمأنت نفسه على مصير المسلمين من بعده جعل يحاسب نفسه على ما قدم ثم لحق برفيقه إلى الرفيق الأعلى.

أول خطبة لعمر بعد خلافته:

ولما بويع عمر صعد المنبر فخطب خطبة موجزة تدل على سياسته فقال "إنما مثل العرب كمثل جمل آنف[٣] اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق".

ولقد بر رضى الله عنه فى قسمه فسلك فى سياسته نفس الطريق التى سلكها سلفه من قبل، وهى المضى فى حروب فارس والروم لنشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، وقد وفق فى هذا توفيقا عظيما، إذ قضى على دولة فارس، واستولى على أحسن الأقاليم الرومانية فى آسيا وإفريقية، ووضع أسس المدنية الإسلامية.

٢ - الفتوح فى العراق وفارس:

أسلفنا فى حروب الردة أن العلاء بن الحضرمى عقد له لواء وأرسل لمقاتلة المرتدين بالبحرين، وأنه انضم إليه الكثير من شيوخ القبائل الذين رغبوا فى البرهنة على إسلامهم،

---

(١) قيل إن أبا بكر أشرف على كوة له وقال: يا أيها الناس إنى قد عهدت عهدا أفترضونه؟ فقالوا: رضينا يا خليفة رسول الله، وقام على بن أبى طالب وقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر.

(٢) قيل: أرسل الكتاب مع مولى لأبى بكر ومعه عمر، وكان عمر يقول للناس أنصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله فإنه لم يألكم نصحا، فسكن الناس، فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا (ابن الأثير ج٢ ص ٢٩٢).

(٣) والجمل الآنف هو الذى يأنف من الضرب ويعطى ما عنده من عفوا سهلا بلا زجر.

ونذكر هنا أن من هؤلاء الذين انضموا من بنى بكر بن وائل، "المثنى بن حارثة" وأن هذا المثنى قد أبلى بلاء حسنا فى مقاتلة المرتدين، وتعقبهم بعد هزيمتهم ولم تقف مهمته عند هذا الحد بل قد تابع السير بعشيرته البالغة ثمانية آلاف مقاتل على شاطئ الخليج الفارسى يقاوم دسائس الفرس ويقضى على أنصارهم من القبائل ومن الأبناء حتى بلغ مصب نهر الفرات، وعمل على نشر الإسلام فى تلك الجهات، وبلغ ذلك الخليفة فسأل عنه فقال له قيس بن عاصم المنقرى": هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول الحسب ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيبانى:

ففكر أبو بكر فى أمره وفى البدء بفتح العراق وبينما هو يفكر إذ أقبل المثنى إلى المدينة وقابل الخليفة وقال: يا خليفة رسول الله استعملنى على من أسلم من قومى أقاتل هؤلاء الأعاجم من فارس، فكتب له أبو بكر بذلك عهدا.

ومع اقتناع الصديق بأن المثنى رجل يمكن الاعتماد عليه فإنه رأى أن فتح فارس يحتاج إلى رأى خالد بن الوليد وسيفه فاستدعاه من وادى الوبر باليمامة فى المحرم سنة ١٢، فحضر على عجل.

ولم يتردد خالد حين عرف ما جاء المثنى فيه عن الإشارة إلى ما قد يترتب من النتائج على مقاومة الفرس لجيش المثنى فقد يدعوهم انتصارهم إلى التفكير فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها فأما إن أعد الخليفة للحرب عدتها وجعل ما قام به المثنى من قبل طليعة فتح فلا ريب أن العراق سيفتح أبوابه وهذه هى الرواية الراجحة.

فأمره أن يسير إلى العراق وأن يبدأ بالأبلة كما ندب عياض بن غنم لغزو الفرس من الشمال وأن يخضع فى طريقه دومة الجندل التى كانت مرتدة عن الإسلام ثم يسير منها شرقا إلى الحيرة، وأمرهما أن يرعيا صالح فلاحى السواد وألا يشركا فى الغزو أحدا ممن ارتد ولا يكرها أحدا على المسير، وفكرة الخليفة فى هذا أن يكون الجيش من الذين ثبت الإيمان فى قلوبهم ولهم رغبة شديدة فى نشر دعوة الإسلام تدفعهم إلى التطوع فى سبيل الله.

ولما كانت هذه هى الأوامر وكانت جنود خالد قد قل عددهم لكثرة من قتل منهم باليمامة، ومن عاد منهم إلى قومه، فقد طلب خالد إلى أبى بكر المدد فأمده بالقعقاع بن عمرو التميمى فقيل له: أتمد رجلا قد ارفض عنه جنوده برجل؟ فقال أبو بكر: لا يهزك جيش فيه مثل هذا: وأمد عياضا بعبدى بن غوث الحميرى.

موقعة ذات السلاسل (كاظمة):

سار خالد بعد أن نظم جيشه باليمامة إلى العراق، ولما بلغ حدوده ألفى المثنى ومن معه ينتظرونه فقسم الجند كله ثلاث فرق وجه كل واحدة منها فى طريق على أن يلتقوا جميعا بالحفير – ماء على ٦ ك.م من طريق البحرين بالقرب من خليج فارس على حدود الصحراء وعلى مقربة من كاظمة وفى طريقهم إلى الأبلة.

فأما الفرقة الأولى وعلى رأسها المثنى بن حارثة فسارت قبل خالد بيومين، وأما الفرقة الثانية وعلى رأسها عدى بن حاتم الطائى فسارت قبله بيوم وسار خالد فى المؤخرة وكان خالد قد بعث قبل ذلك إلى هرمز أمير هذه المنطقة بكتاب يقول فيه: أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة. وعندما تناول هرمز كتاب خالد كتب إلى أردشير ملك فارس يخبره بالخبر وجمع جموعه وسار إلى الكواظم ليتلقى خالدا فسمع أنهم تواعدوا الحفير فسبقهم إليها ونزل على الماء فيها وقدم خالد عليهم وأمر بالنداء فى الجند لينزلوا ويحطوا أثقالهم وتحدث إليه جماعة من أصحابه أنهم نزلوا على غير ماء فقال لهم: حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين: فحطوا أثقالهم وأرسل الله سحابة هطلت وراء صفوف المسلمين فقويت قلوبهم.

ووقف هرمز فى جنوده وعلى ميمنته وعلى ميسرته أميران من البيت المالك فى فارس هما قباذ وأنوشجان، ودعا هرمز خالدا إلى المبارزة وأوصى أصحابه أن يغدروا به، فبرز إليه خالد وترجلا وتضاربا بالسيف فاحتضنه خالد فهم أصحاب هرمز بالحملة على خالد فلم يمنع ذلك خالدا من قتله وخف القعقاع بجماعة إلى الغادرين من الفرس فنحرهم عن خالد وانهزم أهل فارس وفر قباذ وأنوشجان فيمن بقى من جيش الفرس وطاردهم المسلمون وركبوا أكتفاهم إلى الليل وبلغ المسلمون الجسر الأعظم من الفرات حيث تقع البصرة اليوم.

وتسمى هذه الواقعة ذات السلاسل لأن هرمز قرن فريقا من الفرس بالسلاسل ليمنعهم من الفرار، ويسميها بعض الرواة غزاة كاظمة نسبة إلى أقرب قرية من المكان الذى وقعت فيه.

وأيا كانت التسمية فقد تم النصر للمسلمين وأمر خالد معقل بن مقرن بالسير إلى الأبلة ليجمع مالها وسبيها ففعل، وأمر المثنى أن يلاحق المنهزمين من جيش الفرس فسار فى أثرهم وكأنما يريد ألا يفوتهم قبل أن يبلغ المدائن ومر المثنى فى أثناء مطاردته جيش الفرس

بحصن تقيم فيه أميرة فارسية يطلق عليه مؤرخو العرب "اسم حصن المرأة"، فترك أخاه المثنى بن حارثة على حصار هذا الحصن وسار هو فحاصر زوجها فى حصنه وقتل من فيه وأخذ أموالهم، وعلمت المرأة بما أصاب زوجها فصالحت المثنى وأسلمت وتزوجته.

آثار موقعة ذات السلاسل:

١ – مقتل هرمز أرضى المسلمين الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد لأنه كان أسوأ أمراء الثغور معاملة للعرب، وكانوا يحقدون عليه حتى لقد بلغ من حقدهم عليه وبغضهم له أن جعلوه مضرب المثل فى الخبث فكانوا يقولون: أخبث من هرمز، و: أكفر من هرمز.

٢ – ألهبت حمية المسلمين فقد رأوا الفرس لا يثبتون أمامهم.

٣ – أخذ المسلمون غنائم كثيرة فقد بلغ نقل الفارس ألف درهم خلا السلاح، وبعث خالد بخمس الغنائم إلى أبى بكر وبعث معها بقلنسوة هرمز التى قيمتها مائة ألف درهم لأنه كان قد تم شرفه فى الفرس، وقيل طيف به فى المدينة ودهش أهلها لرؤيته، ولم يكن أهل المدينة قد رأوا فيلا فى حياتهم بل لم تر بلاد العرب كلها فيلا قبل ذلك إلا فيل أبرهة حين حاول هدم الكعبة، فقلد الصديق خالدا القلنسوة، ورد الفيل إلى العراق لأنه ظهر أن بيئة المدينة لا تناسبه.

٤ – نفذ خالد ما أوصاه به أبو بكر بشأن فلاحى السواد مما حبب الناس فى الإسلام.

موقعة المذار أو الثنى:

كان أردشير حين جاءته رسالة هرمز دعا إليه قارن بن قريانس أحد الأمراء الذين تم شرفهم وجعله على رأس قوة سارت مدد الجيش هرمز، وبينما هو فى طريقه إليه علم ما آل إليه أمر هرمز والفرس فجمع فلول الجيش المنهزم وأقام بالمذار على بعد ٩٦ ميلا شمالى البصرة على شفاف قناة تصل دجلة بالفرات.

وكان المثنى كما عرفنا لا يزال يطارد فلول المنهزمين فأيقن أن انفراد جيشه بلقاء هذه القوة العظيمة قد يجر عليه الهزيمة فاختار مكانا قريبا من المذار أنزل جنده فيه وكتب إلى خالد بالخبر فأسرع خالد لنجدته وأدركه فى الوقت الذى كان قارن يعد فيه العدة للقاء المثنى، فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا، وقد بدأ القتال بالمبارزة فبرز قارن قائد الفرس فقتله معقل بن الأعشى وقتل عاصم أنوشجان وقتل عدى بن خاتم قباذ، وكان عدد القتلى من الفرس كما يروى الطبرى وابن الأثير ثلاثين ألفا سوى من غرق ومنعت المياه المسلمين

من طلبهم وقسم خالد الفيء وأعطى الأسلاب لمن سلبها بالغة ما بلغت وأنفذ الأخماس إلى المدينة وسبى عيالات المقاتلة وأخذ الجزية من الفلاحين وصاروا أهل ذمة وكان فى السبى والد الحسن البصرى وكان نصرانيا.

وحرص خالد بعد أن اطمأن له الأمر على تأمين مواصلاته إلى الخليج الفارسى فأمر القواد على الجنه الذين استبقاهم بالحفير وعلى الجسر الأعظم وولى العمال على الجباية وأقام بالمذار يتحسس الأخبار.

الولجة (١):

بعد موقعة المذار رأى ملك فارس أن يحارب العرب بالعرب لأنهم أعلم بخططهم فجمع جيشا من نصارى بكر بن وائل وغيرها من القبائل التى ترى أن تبعيتها للفرس أفضل من خضوعها للمسلمين، وكان هذا الجيش بقيادة الأندرزغر، ولكى لا يكون للعرب كل فخار النصر أقام قائدا من أقدر قواده هو بهمن جاذويه على جيش من الفرس ووجهه فى أثرها.

ولما علم خالد بهذا الجمع ترك حامية فيما فتحه من الدلتا وتقدم للقاء هذا الجيش، ورتب الهجوم عليه من ثلاث جهات من الأمام ومن الخلف بواسطة كمائن جعلها خلف الجيش الفارسى ونازل خالد العدو من الأمام منازلة شديدة وظن الفريقان أن الصبر قد نفذ وأن المعركة لن تنتهى إلى غاية، وإنهم لكذلك إذ خرج كمين المسلمين فى ناحيتين من وراء الفرس فى حين كان خالد يشتد فى الضغط عليهم من الأمام، فانهزم الفرس ومن معهم من العرب ومضى الأندرزغر فى طريقه منهزما حتى مات عطشا فى الفلاة، وقد قتل فى هذه الموقعة كثير من قبيلة بكر، وسبى خالد ذرية المقاتلة وأعطى الأمان للفلاحين فصاروا أهل ذمة، وبلغت المغانم يومئذ مبلغا جعل خالدا يقوم فى الجيش مشيرا إلى ثراء الأرض التى يقاتلون فيها ويقول: ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب، إلخ العبارات التى سبقت فى أسباب انتصار المسلمين فى الفتوح.

أليس:

ربيع الأول سنة ١٢هـ - مايو سنة ٦٣٢م، ولما قتل فى الموقعة السابقة الكثير من بنى بكر غضب لهم نصارى القبائل الساكنة أراضى العراق كلها واستحثوا ملك الفرس أردشير

---

(١) فى شمال المذار قرب ملتقى دجلة والفرات، وكانت هى والمذار وذات السلاسل فى صفر سنة ١٢ هـ، أبريل ومايو سنة ٦٣٣م.

للقيام معهم للانتقام مما حل بهم، واجتمعت الجموع من بنى بكر وعجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة بأليس الواقعة على صلب الفرات فى منتصف الطريق بين الحيرة والأبلة، وكتب أردشير إلى بهمن جاذويه يأمره بالقدوم على نصارى العرب لمساعدتهم ففعل وأمر جابان أحد قواده بالتوقف عن المحاربة إلى أن يقدم عليه وذهب إلى أردشير ليشاوره فيما يفعل فوجده مريضا فأقام بالبلاط الفارسى ينتظر ما يكون من الأمر.

ولما علم خالد بتجميع العرب والفرس بأليس سار إليهم بعد أن ترك حامية قوية فى الحقير لتحمى ظهره ولم ينظر القوم حين بلغ أليس بل دعاهم إلى القتال وأسرع العرب للقائه وبرز إلهه منهم مالك بن قيس أحد قوادهم فقتلهن وإذ ذاك تقدم الفرس بجبهة شاسعة ورأى المسلمون من شدة القتال ما لم يشاهدوه من قبل حتى لم يدر أحد لمن يكون النصر ويروى أن خالدا قال أثناء هذه الشدة: اللهم إن لك على إن منحتنا أكتافهم ألا أستبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم. واستبسل المسلمون وتوالت هجماتهم فلم يستطع الفرس الثبات ففروا، ورأى خالد فرارهم فأمر مناديه فنادى على رجاله: الأسر الأسر، لا تقتلوا إلا من امتنع. ولحق فرسان المسلمين بالفرس وأنصارهم من العرب وجاءوا بهم أفواجا أسارى يساقون سوق الغنم وكان الفرس قد أعدوا قبل المعركة طعام غذائهم فأعجلهم خالد عنه فلما انهزموا وقف خالد على الطعام وقال لرجاله: قد نقلته لكم. وجلس المسلمون إلى السماط يتناولون طعام العشاء وجعل من لم ير الرقاق يقول: ما هذه الرقاع البيض؟ فيجيبه من يعرفه مازحا: هل سمعتم برقيق العيش، فهذا هو ويقال إن خالدا تناول عشاءه متكئا على بطل عظيم الجسم ممن يساوى ألف مقاتل قد صرعه خالد فى المبارزة.

ودعا خالد بالأسرى يستعرضهم لتبر يمينه أن يجرى نهرهم بدمائهم ووكل بهم رجالا يضربون أعناقهم فى النهر بعد أن صد الماء عنه وأقام المتوكلون يضربون يوما وليلة والنهر لا يجرى دما فقال له القعقاع وغيره: لو قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤها النهر فأرسل عليها الماء تبر يمينك: ففعل فجرى دما عبيطا ومن يومئذ سمى هذا النهر (نهر الدم).

ويقول ابن الأثير ج٢ ص ٢٦٥: وبلغ عدد القتلى سبعين ألفا. وبموقعة أليس أو نهر الدم انكسرت شوكة الفرس وخارت قوة الدولة الفارسية وخمدت فيها روح المقاومة إلا أن

حلفاءهم من العرب صاروا يهددون خط الرجعة ويضايقون خالدا فقرر إخضاع كل المنطقة التى تسكنها تلك القبائل غربى الفرات والتى كانت عاصمتها إذ ذاك الحيرة فصمم على الاستيلاء عليها.

فنهض إلى أمغيشيا أو نميشيا – تقع عند ملتقى الفرات بنهير بداقلى – وهى تضارع الحيرة فى ثروتها واتساع عماراتها.

ولما سمع الأهالى بقدوم خالد هربوا منها فدخلها المسلمون وأخذوا كل ما كان فيها فكان نصيب الفارس ١٥٠٠ درهم سوى النفل الذى نفله خالد لأهل البلاء، وبعث خالد بالأنباء وبخمس الفىء والسبى إلى أبى بكر مع رجل يدعى جندلا من بنى عجل فلما قص عليه ما حدق وأخبره بفعل ابن الوليد، لم يملك أبو بكر نفسه أن صاح: عقمت النساء أن يلدن مثل خالد. ويروى أنه قال: يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على عرازيله، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد[1]؟ والعرزال عريشة الأسد وقيل هو ما يجمعه الأسد فى مأواه.

فتح الحيرة:

سار خالد من أمغيشيا إلى الحيرة وحمل الرجال والأثقال فى السفن فخرج إليه مرزبان الحيرة بعد أن أرسل ابنه فقطع ماء النهر عن السفن بسد الفرات فلم يشعر المسلمون إلا والسفن جوانح فنهض خالد بجيشه نحو ابن المرزبان فقتله على فرات بادقلى[2] وقتل معه كثيرا من أصحابه وأطلق الماء إلى السفن، ثم سار خالد إلى الحيرة فهرب مرزبان الحيرة ومعه الأزلوية فزعا لما علموا بموت كسرى وقتل ابن مرزبان الحيرة بين المسلمين فى وقت واحد.

ولم يثن فرارهم أهل الحيرة عن التحصن بقلاع المدينة الأربع وبأسوارها وعن اتخاذ العدة للدفاع عنها ما وجدوا إلى الدفاع سبيلا فألقى خالد عليها الحصار، وبعد مناوشات قصيرة تمكن من دخولها وعهد بحصار القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة إلى ضرار ابن الأزور، وبحصار العديسيين وفيه عدى العبادى إلى ضرار بن الخطاب وبحصار قصر بن بقيلة وفيه عمرو بن المسيح إلى المثنى بن حارثة وبحصار قصر بن مارزن وفيه ابن أكال إلى ضرار بن مقرن المزنى، وأعمل المسلمون القتل فى أهل الحيرة فافتتحوا الدور والأديار،

(١) ابن الأثير ج٢ ص ٢٦٢ وهيكل ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٢٤٣، وخلفاء محمد للأستاذ عمر أبو النصر ج١ ص ٨٧ ، ٨٨.

(٢) الكلمة فارسية وأصلها بودقلى بالواو وأبدل العرب الواو ألفا ومعناها بالفارسية متفرع، يكون المعنى عند تفرع الفرات.

فنادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم. فنادى أهل القصور: يا معشر العرب قد أجبناكم إلى واحدة من ثلاث فكفوا عنا: وخرج رؤساء القصور إلى خال فخلا بأهل كل قصر على حدة ولامهم قائلا: ويحكم ما أنتم؟ أعراب؟ فما تنقمون من العرب؟ أوعجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟ ثم قال: اختاروا واحدة من ثلاث أن تدخلوا فى ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، إن نهضتم وهاجرتم وإن أقمتم فى دياركم أو الجزية أوالمنابذة والمناجزة، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة. فأجابوا: بل نعطيكم الجزية فصالحهم خالد على تسعين ألف درهم تدفع كل سنة، وأهدوه هدايا فاخرة فبعث خالد بها وبنبأ الفتح والمعاهدة إلى أبى بكر، فأجاز المعاهدة وقبل الهدايا لكنه احتسبها من الجزية وكتب بذلك إلى خالد، وكان فتح الحيرة فى ربيع الأول سنة ١٢ هـ.

نتائج فتح الحيرة: كان الاستيلاء على الحيرة أول خطوة سياسية خارج شبه الجزيرة العربية وقد أقام فيها خالد سنة كاملة واتخذها قاعدة لفتوحاته فكانت أول عاصمة خارج بلاد الجزيرة العربية، ولم يغير خالد الأنظمة الحكومية التى وجدها بل تركها كما هى وترك إدارتها للزعماء من أبنائها وإنما أتى على الحيرة شيئان جديدان هما الآذان والصلاة فى معسكر المسلمين، وكان من نتائجها أيضا أن لما رأى عمال الفرس على مدن العراق ما تم لخالد من الظفر وكانوا قد وقفوا على الحياد ينتظرون رجحان إحدى الكفتين فيميلون مع الراجحين أتى بعضهم وقدم فروض الطاعة والولاء لخالد فصالحهم على دفع الجزية ومنحهم نفس الشروط التى منحها لأهل الحيرة بما فى ذلك ما تعهد به من حماية تلك الولايات والدفاع عنها.

وبذلك بلغ سلطان خالد إلى شاطئ دجلة وصار عماله يتقاضون الجزية فى هذه البلاد جميعا ما بين الخليج الفارسى جنوبا إلى الحيرة شمالا ومن حدود بلاد العرب غربا إلى دجلة شرقا، وأقام خالد فيالق من جيشه فى أماكن حصينة ليمنعوا من أجارهم من عدوان غيرهم عليهم، وليكون مقامهم فى مختلف المواطن مظهر السلطان الإسلامى بين أهل البلاد.

فتح الأنبار: كانت الأوامر التى صدرت من أبى بكر منعت من التقدم حتى يتقدم عياض ابن غنم من دومة الجندل، ويزحف على العراق من الشمال فرأى خالد أن يوجد عملا لجنوده فى تلكا لفترة فسار بجيشه حتى بلغ الأنبار – على الفرات غرب بغداد

وبينهما نحو عشرة فراسخ - حاصرها وكان أهلها قد خندقوا على أنفسهم وتحصنوا وأشرفوا من أعالى الحصون فأمر خالد جنوده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا فى عدوهم، ويقال إنهم أصابوا نحو ألف عين من عيون أهل الأنبار، فقيل ذهبت عيون أهل الأنبار، وسميت الموقعة بذات العيون، ومع ذلك لم يسلموا فأمر خالد بنحر الإبل التى كلت من السير وأصبحت ضعيفة والقيت جثتها فى أضيق مكان من الخندق، واقتحم الجند من فوقها إلى الأسوار فحطموا أبوابها.

ولما رأى ذلك قائد جند الأنبار طلب من خالد الصلح على أن يخلى سبيله ليس معه من المتاع شيء فأجابه إلى ما طلب وتسلم خالد الأنبار وصالحه من حولها وقصد بعد ذلك عين التمر ففتحها وقد وجد فى كنيسة أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل فقسمهم فى أهل البلاد، وكان من بينهم نصير والد موسى بن نصير فاتح الأندلس فى عهد الوليد بن عبد الملك، ويسار جد المؤرخ المشهور بابن إسحق، وسيرين والد محمد بن سيرين وأبو عمرة جد عبد الله بن الأعلى الشاعر المشهور وحمران مولى عثمان بن عفان ... إلخ ثم خرج خالد فى جنده يسرع السير إلى دومة الجندل، وكان بين دومة الجندل وعين التمر ثلاثمائة ميل قطعها خالد فى أقل من عشرة أيام اجتاز خلالها بادية الشام وصحراء النفوذ منحدرا من الشمال إلى الجنوب، فلما كان قريبا من دومة الجندل وتسامعت القبائل بمقدمة ذعرت واختلف زعماؤهم فمنهم من يريد أن يقاتل ابن الوليد ومنهم من يريد صلحه، فكان ذلك أول الهزيمة التى حاقت بهم، فقد قال لهم رئيسهم أكيدر بن عبد الملك: أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرا منه ولا يرى فى وجه خالد قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعونى وصالحوا القوم. فأبوا عليه فقال: لن أمالئكم على حربه فشأنكم. وخرج عنهم وسمع خالد بمسيرة فأرسل إلى طريقه عاصم بن عمرو فأخذه أسيرا وأخذ ما كان معه.

وسار خالد فجعل دومة الجندل بين عسكره وعسكر عياض، وكان الجودى بن ربيعة (الرئيس الثانى) وقد بقى على أهل دومة فى حين ترأس كل قبيلة من القبائل التى أمدت دومة زعيمها، وقد ضاق حصن دومة بهذا العدد فأقام سائر القوم حوله يحيطون به، واستفتح الفريقان القتال فلم يلبث الجودى أمام خالد إلا قليلا قم أخذه خالد أخذا وهزم عياض من يليه من جند القبائل عند ذلك أسرع القوم جميعا إلى الفرار يريدون دخول الحصن والاحتماء به فلم يحملهم فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابهم فبقوا حواله

فأخذهم خالد فقتلهم حتى سد باب الحصن وقتل الجودى وقتل الأسرى إلا أسرى كلب فإنه أطلقهم على كره منه لأن بنى تميم قالوا لخالد: قد أمناهم. وكانوا حلفاءهم فتركهم وهو يقول: مالى ولكن أتحفظون أمر الجاهلية وتضيعون أمر الإسلام؟ ثم أخذ الحصن قهرا فقتل المقاتلة وسبى الذرية والنساء وباعهم [1] واشترى خالد ابنة الجودى بن ربيعة وأقام معها بدومة الجندل مدة عاد بعدها إلى الحيرة حين بلغه تحرك العجم لاسترداد ما فتح من بلادهم فى العراق منتهزين فرصة غيابه وساعدهم فى ذلك بعض العرب غضبا لعقة بن أبى عقة الذى قتله خالد فى عين التمر.

القادسية (٢)

نظر الفرس بعد هزيمتهم فى البويب، فوجدوا أن سبب عجزهم عن إخراج المسلمين من العراق هو ما هم فيه من اختلاف بسبب الملك والسلطان، فقالوا: لرستم ومنافسه الضيرزان، إما أن تجتمعا وإما فنحن لكما حرب، فقد عرضتمونا للهلكة، وما بعد بغداد وتكريت ألا المدائن، ففزعا إلى أزر ميدخت أو بوران يسألانها فى ولد من كسرة يوليانه عليهم فأحضرت النساء والجوارى وبسطوا عليهم العذاب حتى استولوا على يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى[3]، فملكوه عليهم وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء فى طاعته، ومعونته وثار فى المملكة حماس جديد فقد عز على الفرس أن يصبحوا خاضعين لقوم كانوا إلى الأمس القريب من أتباعهم، فأنقذته الجيوش واحتلت كثيرا من أراضى المسلمين واقتربت من الحيرة نفسها (الكامل لابن الأثير ج٢ ص ٣٠٥ والخضرى ج١ ص ١٩٩ - ٤٠٢ والدكتور زيادة ص ٣٥ - ٣٩).

وإزاء هذا لم يسع المثنى إلا الجلاء عن الحيرة والتقهقر بجيوشه القليلة فعسكر بذى قار[4]، وأخبر الخليفة بما جد فى بلاد الفرس والأخطار الفجائية التى حاقت بالفتوحات الإسلامية فى العراق فعزم الخليفة على توجيه ضربة قاضية إلى المدائن، وقال: والله

---

(١) لعل سائلا يسأل ما سر عناية المسلمين بدومة الجندل فقد اتجهت إليها أنظارهم فى عهد الرسول واتجهت فى عهد أبى بكر ووقف أمام أبوابها ابن غنم سنة؟ والجواب، أن دومة الجندل تقع على رأس الطريق الذى يؤدى إلى الحيرة وإلى العراق وعلى أبواب وادى سرحان الذى يؤدى إلى الشام، فطبيعى أن تنال من عناية الرسول ما نالت حينما كان يؤمن= =الحدود وطبيعى أن تنال مثل هذه العناية وجنود الإسلام تقاتل بالعراق وتقف على تخوم الشام.

(٢) قرب البصرة على سيف البادية وحافة سواد العراق، اختارها عمر ليضع للمسلمين خط الرجعة لو تقهقروا.

(٣) وكانت أمه قد أرسلته إلى أخواله حينما عمل شيرى على قتل الذكور.

(٤) موضع على حدود على البادية كانت به موقعة بين الفرس والعرب فى الجاهلية انتصف فيها العرب.

لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، وكتب إلى المثنى بأمره بخروج المسلمين من بين العجم والتفرق فى المياه بجبالهم على الحدود بين العرب والعجم أن يدعو الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعا أو كرها، وكتب إلى عماله من العرب أن يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي، وخرج إلى الحج سنة ١٣ ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة، ومن كان إلى العراق أقرب انضم إلى المثنى.

ولما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة إلى ماء على ثلاثة أميال منها يسمى صرار، فعسكر به ولا يدرى الناس ما يريد أيسير أم يقيم؟

وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف، فإن لم يقدر هذان على علم شيء ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب، فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس واستشارهم فى أمر المسير إلى العراق، فقال العامة: سر ونحن معك. فلم يشأ عمر أن يصادمهم بالمخالفة بل قال: استعدوا وأعدوا فإنى سائر إلا أن يجيء رأى هو أمثل من هذا.

أرسل قائد الفرس لقائد المسلمين إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم فعقد أبو عبيدة مجلسا حربيا للمشاورة فى الأمر فأشار عليه أصحابه بعدم العبور إلى الفرس، وأن يتركهم يعبرون إلى المسلمين فأبى وقال: لا يكون أجرأ على الموت منا.

ولما كان أبو عبيدة هو القائد الأعلى للجيش فقد وافقه أصحابه على رأيه وقرروا العبور، فنصب جسرا من الزوارق، وعبر أبو عبيدة ودارت رحى القتال، وماجت الأرض بالمقاتلة، ونفرت خيول المسلمين من الفيلة، وترجل أبو عبيدة والناس، وصافحوا العدو بالسيوف، ودافعتهم الفيلة فقطعوا وضنها فسقطت رجالها وقتل من كانوا عليها وقابل أبو عبيدة فيلا فوطنه بيده، وقام عليه فأهلكه، فانهزم المسلمون واضطربوا لفقده وتتابع من ثقيف سبعة يأخذون اللواء بعد أبى عبيدة حسبما عينهم قبل وفاته فماتوا جميعا.

ولما قتل حملة الراية من ثقيف حملها المثنى، ولكن المسلمين كانوا قد انهزموا وفروا عنه، فأصبحت الحال سيئة وزاد الطين بلة أن عبد الله بن مرثد الثقفى قطع الجسر حين فرار الناس وقال: موتوا أو تظفروا.

وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر فتواثب بعضهم إلى نهر الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر، وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس من الإبادة، وطلب المثنى من الذين عبروا سباحة أن يعقدوا الجسر، فعقدوه وكان آخر من قتل عند الجسر سليم بن قيس الأنصارى، وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق وهرب ألفان وبقى

ثلاثة آلاف، وقتل من الفرس ستة آلاف وأراد بهن العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر بأن الفرس ثاروا على رستم فرجع إلى المدائن، وكان هذا من كرم الله للمسلمين.

والسبب فى هزيمة المسلمين يرجع إلى أمرين: مخالفة أبى عبيدة لمن معه، فإنهم أشاروا عليه بعدم العبور حينما أخبرهم به، وحماقة عبد الله بن مرثد فى قطعة للجسر حين التقهقر وقد أثارت هذه الهزيمة كلا من الخليفة والمثنى، فإنه لم يبق بالعراق من المسلمين إلا عدد قليل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فضلا عن الاحتفاظ بالأملاك المفتوحة.

يوم البويب، وهو يوم مهران:

قلنا إن الحالة بالعراق أصبحت سيئة نتيجة يوم الجسر، وخاف عمر بن الخطاب أن تضيع الأملاك الإسلامية فى أول عهده، وهو الحريص على نشر الدين وتراث سلفه فسارع بندب الناس إلى المثنى، وكان فيمن ندب بجيلة، وأمرهم إلى جرير بن عبد الله البجلى، وكتب عمر إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا رمى به المثنى.

وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافوا إليه حتى نصارى النمر، وقالوا: نقاتل مع قومنا، وبلغ الخبر رستم ومن التف عليه، فبعثوا مهران الهمذانى إلى الحيرة، وعلم المثنى فكتب إلى جرير وغيره أن يقصدوا العذيب مما يلى الكوفة فاجتمعوا هنالك ومهران قبالتهم عدوة الفرات وأرسل مهران إلى المثنى يخيره فى العبور، وكان طبيعيا أن يطلب المثنى منهم العبور بعد الذى حدث فى موقعة الجسر، فعبروا واشتد القتال، وكانت الحرب فى هذه الموقعة أشد ما صادفه بالمسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا على الفرس، ولكى يلحق بهم ما لحق المسلمين فى يوم الجسر سبق إلى جسر البويب - نهر صغير بالعراق - فقطعه[1] فلم يتمكنوا منه.

ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وأعلام العرب وأرسل إلى على وكان قد استخلفه على المدينة فأتاه وإلى طلحة وكان على المقدمة فرجع إليه، وإلى الزبير وعبد الرحمن وكانوا على المجنبتين فحضرا، ثم استشارهم فأشاروا بمقامه، وأن يبعث واحدا بعده آخر من الصحابة ويرميه بالجنود حتى يفتح الله على المسلمين، ويهلك عدوهم، فاستحسن عمر هذا الرأى، وجمع الناس وقال لهم: إنى كنت عزمت على المسير إلى العراق حتى صرفنى ذوو الرأى منكم، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا فأشيروا على برجل.

وبينما هو كذلك إذ جاءه كتاب من سعد بن أبى وقاص الزهرى عامله على صدقات

---

(١) وقد ندم المثنى بعد ذلك على قطع الجسر وعده خطا حربيا لأنه قطع خط الرجعة على الأعداء إنما يفيد إذا كان عددهم قليلا، أما إذا كان كثيرا فإن قطع خط الرجعة قد يلجئهم إلى الاستماتة فى القتال، والعمل على النصر.

هوازن فيه: قد انتخبت لك ألف فارس كلهم له تجده ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه إليهم انتهت أحساب قومهم ورأيهم: فلما قرأ عمر الكتاب قال القوم: قد وجدته. قال: من هو؟ قالوا: الأسد عاديا سعد بن مالك، فانتهى إلى قولهم وأحضره وأعطاه القيادة العليا على جيش العراق، وكان عدده أربعة آلاف جمعوا من وجوه العرب وأعيانها، ولم يدع عمر رئيسا ولا ذا سلطة ولا ذا نجدة ولا ذا رأي؟ ولا خطيبا إلا رمى الفرس به[1] وقد أوصى عمر سعدا قبل أن يخرج بوصية قيمة كما نصح الجيش عندما شيعه بنصائح اشتملت على حكم ومواعظ لو عملت الإنسانية بها اليوم لسعد حالها، ولصلحت الأمم، ولما تخاصمت، ولصار الجميع إخوة متحابين[2].

سار سعد بجيشه حتى وصل إلى زرود[3]، فأمر الناس بالنزول بها على مياه بنى أسد، وانتظر بها حسب أمر الخليفة حتى تأتيه القوى، ويتلقى أمره بالزحف، ثم أمده بألفى يمانى وألفى نجدى، وكان المثنى بن حارثة ينتظر قدومه.

غير أن سعدا والمثنى لم يتقابلا لوفاة المثنى أثناء إقامة سعد بزرود وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته التى تعتبر خلاصة تجاربه وعصارة خبرته فى حروبه الطويلة مع الفرس، وترمى هذه الوصية إلى أن يعمل سعد على الحذر فى حربه مع الفرس بألا يتوغل فى بلادهم إلا بعد أن تحل بهم الهزيمة وأن يحافظ دائما على خط الرجعة حتى لا يلحق بالمسلمين تطويق أو اكتناف وهم فى أرض العدو، وقد أتى خطاب الخليفة يوصى بتلك الخطة أيضا.

وقد فقد الإسلام بوفاة المثنى قائدا ماهرا لا يقل عن خالد بن الوليد فى الإقدام والتدبير الحربى والسياسى ثم سار سعد من زرود بعد ذلك إلى شراف نزلها، وأخذ ينظم قواته التى بلغت ثلاثين ألفا استعدادا للمعركة الفاصلة قسم الجنود إلى عشرات وعقد الرايات للمبرزين فى الحرب وقسم الجموع كلها إلى فرق بحيث تكون جنود كل فرقة من قبيلة واحدة، وكل قبيلة يرأسها أميرها وجعل داعية الجيش ومرشده، سلمان الفارسى وجعل القضاء إلى عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، ويضم إليه قسمة الفيء على أهله.

ولما انتهى سعد من تعبئة الجيش وتنظيمه حسب أمر الخليفة سار إلى القادسية التى كان يحوطها الفرات من جهة الشرق وخندق سابور من جهة الغرب مما يلى صحراء

---

(١) وكان من بين هذا الجيش طليحة الأسدى – صاحب الدعوة الكاذبة قديما – بفرقته، وعمرو بن معد يكرب الزبيدى والأشعث بن قيس الكندى.

(٢) راجع الوصيتين فى صفحتى ٣١٠، ٣١١ فى كتاب الكامل لابن الأثير ج٢ (طبعة منير).

(٣) زرود رمال على طريق الحاج إلى الكوفة بين الثعلبية والجزيمية.

العرب، وكانت القادسية واقعة على الطريق التجارى فى بلاد فارس والعرب، ويستمر ذلك الطريق إلى الحيرة الواقعة قبالة القادسية على الشاطئ الآخر ويوصلها جسر، ومن الحيرة يستمر ذلك الطريق الممهد الواسع إلى المدائن نفسها.

ووقف سعد بجنوده قبالة القادسية بقرب حصن اسمه حصن قديس فى جنوبى الجسر المتقدم ذكره وعسكر هناك ينتظر ما تفعله الفرس، وكان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذى يوجهونه لحرب المسلمين فرضى بذلك إلا أنه كان يرى الإقامة والانتظار بقرب المدائن حتى يدخل المسلمون أرض العراق، فلم يوافق الملك على ذلك لكثرة إغارة سرايا المسلمين على ضياع الأطراف وكثرة وصول الشكاوى بذلك من أهل السواد، وبينما ذلك يجرى فى عاصمة الفرس كان سعد فى موقفه تأتيه الرسائل من الخليفة وفى إحداها أشار عمر بن الخطاب بإرسال بعث إلى يزدجرد فبعث سعد عشرين من نخبة رجاله على رأسهم "النعمان بن مقرن"، ومنهم الأشعث بن قيس وعمرو بن معد يكرب والمغيرة بن شعبة وعاصم بن عمرو والمثنى بن حارثة.

ذهب هذا الوفد إلى يزدجرد واستأذنه فى المثول بين يديه فأذن لهم فدخلوا وجلسوا ثم دارت محاورة بينهم وبين الملك دعوه فيها إلى الإسلام فتصير له حقوق المسلمين أو دفع الجزية فتكون له ولرعيته الذمة أو التقدم للقتال[1] فغضب كسرى لهذه الجرأة، وقال لهم: لولا أن الرسل لا تقتل لأمرت بقتلكم لا شيء لكم عندى إلا التراب، وأمر بوقر من تراب، ثم قال: من أشرفكم؟ قال عاصم بن عمرو: أنا: فقال يزدجرد: أحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن، ثم التفت إلى البعث فقال لهم: ارجعوا إلى صاحبكم فأخبروه أنى مرسل إليه رستم ليدفنه ويدفنكم معه فى خندق سابور وأنكل به وبكم، وقد تفاءل البعث بهذا الوقر وبشر بعضه بالنصر والظفر.

مسير رستم إلى القادسية:

سار رستم لمقابلة المسلمين بجيش عدده عشرون ومائة ألف مقاتل فوصل الحيرة قبالة القادسية، ثم سار فعسكر عند بلدة النجف قبالة حصن قديس الذى عسكر عنده المسلمون فبعث سعد الطلائع لتأتيه بأخبار الفرس وطلب أن يأتوه برجل من جيش الأعداء ليسأله

(١) راجع هذه المحاورة فى كتاب الكامل لابن الأثير ج٢ ص ٢١٥، ٢١٦ فهى محاورة تدل على قوة الإيمان، ورغبة المسلمين فى الدعوة إلى الله، وتعطيك صورة صادقة عن الإسلام يوم أن كان الإسلام هو المسلمون، والمسلمون هم الإسلام.

عن عدده وعُدده فغامر طليحة الأسدى، ودخل جيش الفرس ليلا وتجول فيه ونظر فى عدده وعُدده فبصر بفرس لهم لم ير فى خيل الفرس أحسن منه فقطع بسيفه مقوده ثم ضمه إلى مقود فرسه ثم حرك فرسه وخرج يعدو به فأحس بذلك بعض الجنود الفارسية فخرج وطلبه ثلاثة من خيرة الفرسان فلحق به أحدهم فقتله ثم لحق به الثانى فقتله فلما لحق به الثالث لم يقتله وأخذه أسيرا لأنه طلب سعد فسار به إلى معسكر المسلمين، فسأله سعد عن الفرس فلم يجب فى بادئ الأمر وبعد محاولات أخبر بعددهم وعُددهم ثم اعتنق الإسلام وسمى نفسه مسلما وأبلى بعد ذلك بلاء عظيما فى الحروب، وقد مكث رستم بعد خروجه من المدائن نحو أربعة أشهر وهو يطاول المسلمين ولا يقاتلهم رجاء أن يضجروا فيرجعوا من غير حرب راضين من الغنيمة الإياب، ولكن كسرى طفق يستحثه ويعجله حتى أقحمه فى الحرب.

ويقال إنه كان يفكر فى عقد صلح بينه وبين المسلمين، وفتح باب بينه وبين سعد وذهبت الوفود من المسلمين إليه، وبينت له فى قوة بأن الإسلام لا يقبل إلا واحدة من ثلاث، واقتنع هو بكلامهم، ورأى أن الأجدى والأنفع للفرس عقد معاهدة ولكن الفرس لم يطاوعوه، ففشلت المفاوضات، ولم يبق إلا السيف حكما.

بدء القتال:

لما استقر رأى الفريقين على القتال سأل رستم وفد المسلمين: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فقال المسلمون: اعبروا أنتم إلينا فأقام الفرس سدا على الفرات وعبروا عليه، واقترب الجيشان، وعبأ سعد جنوده على الطريقة التى رسمها له عمر بن الخطاب ولم يكن من المقاتلة لمرض به كان يمنعه من الركوب فأشرف على القتال من أعلا داره، وأقام نائبا عنه هو خالد بن عرفطة ليبلغ الأوامر إلى القواد، وقام مصاقع الخطباء يخطبون الناس ويشعلون فيهم نيران الحماسة، ويذكرونهم بما أعد للمجاهدين فى سبيل الله ثم توالت أيام الحرب [1].

١- **يوم أرماث:** بعد أن أرسل سعد جماعة من أهل الرأى لتحريض الناس على القتال

(١) قال ياقوت يقال لليوم الأول من أيام القادسية يوم أرماث ويقال لليوم الثانى أغواث ويقال للثالث عماس، وللرابع القادسية ولا أدرى أهذه الأسماء مواضع أم هى من الرمث والعمس والغوث؟ على أنه روى أنه سمى اليوم الأول بأرماث نسبة إلى الرمث بالتحريك، خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب فى البحر ورمث أمره كفرح اختلط فلعلهم شبهوا الصناديق التى على الفيلة بالخشب الذى يضم بعضه إلى بعض ويركب عليه أو لأن أمرهم اختلط، وسمى اليوم الثانى بأغواث نسبة لإغاثتهم بجند الشام، وسمى اليوم الثالث بيوم عماس كسحاب الحر الشدية، وليلته بليلة الهرير «الصوت».

مثل المغيرة بن شعبة، وطليحة، وعمرو، وحذيفة وعاصم وعمرو بن معد يكرب ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وأوس بن مغراء.

وأمر الناس بقراءة سورة الجهاد، وهى الأنفال، فلما فرغوا منها قال سعد: الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فإذا صليتم فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا، فإذا سمعتم الثانية فكبروا والبسوا عدتكم فإذا سمعتم الثالثة فكبروا ونشطوا الناس، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وتم الأمر كتعليمات سعد فإنه لما كبر الرابعة زحف الجنود واصطدمت صدمة هائلة، وبدأت فيلة الفرس تعمل عملها فى الميدان، وقد أجفلت خيل المسلمين عندما رأتها فتفرقت، وكادت قبيلة بجيلة أن تمحى عندما فرقت خيلها فأعانها خالد بن عرفجة ببنى أسد، وفيهم رئيسهم طليحة الأسدى، الذى أظهر فى هذه المعركة أبدع ضروب الشجاعة والبسالة، وصمد مع قومه فى وجه الأعداء، وأخذ الرماة من المسلمين يصوبون نبالهم إلى راكبى الفيلة، فقتلوا عددا منهم وأخذ بعض رجال من تميم يقطعون وضن هوادجها فوقعت الصناديق عن ظهورها، فلم يبق من راكبيها راكب إلا قتل، فلما خلت ظهور الفيلة من راكبيها شردت، ولم تجد من يرعها، فخفف ذلك عن خيالة المسلمين بعض ما كانوا يلاقونه منها، وتنفست أسد الصعداء بعد شرود الفيلة وثبتت فى مواقفها بعد أن قتل نحو خمسمائة، ومكث القتال مستمرا فى هذا اليوم إلى انقضاء الهزيع الأول من الليل، ثم رجع هؤلاء وهؤلاء.

٢ - يوم أغواث:

وأصبح سعد فدفن القتلى وأسلم الجرحى إلى نساء يقمن عليهن وكاد النهار ينتهى بلا قتال لولا وصول جزء من الفرقة الشامية التى أمر الخليفة "أبا عبيدة" أن يسرحها إلى العراق مع قائدها "خالد بن الوليد" فأنفذها أبو عبيدة بقيادة "هاشم بن عتبة أبى وقاص" ابن أخى سعد وأبقى خالدا معه لحاجته إليه فى فتوح الشام.

وجعل على مقدمته "القعقاع بن عمرو"، وأراد القعقاع أن يرهب الفرس فلم يدخل الجيش دفعة واحدة، بل على دفعات، وكلما طلعت قطعة من أصحابه، كبر، وكبر المسلمون، ويحمل ويحملون.

وفى هذا اليوم جاء المسلمون بالإبل فبرقعوها حتى صار لها شكل غريب أخاف خيل

الفرس، ولقيت منها ما لقيت خيل المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول وقد قتل فى هذا اليوم من زعماء الفرس "بهمن جاذويه" - القائد فى موقعة الجسر - قتله القعقاع بن عمرو كما قتل أيضا "الفيزُران" وقتل الحارث بن ظبيان "البندوان" واستمر القتال فى هذا اليوم إلى منتصف الليل، وأسفر عن خسارة ألفين من جنود المسلمين، وعشرة آلاف من جنود الفرس فكانت كفة المسلمين هى الراجحة.

٣ - يوم عماس:

أخذ كل من المسلمين والفرس يعد العدة للمعركة الفاصلة، فوكل المسلمون بقتلاهم من يدفنها، وجعلوها خلفهم والنساء يحفرن القبور لمواراة الجثث فى القراب، وأسلموا جرحاهم إلى النساء لتضمد الجروح وبقى قتلى المشركين بين الصفين فكان ذلك مضعفا لعزائمهم، مشجعا للمسلمين عليهم وصار القعقاع يعبئ أصحابه.

فلما ذر قرن الشمس أقبل القعقاع وأصحابه فتقدموا وتكتبت الكتائب واختلف الطعن والضرب والمدد متتابع، فما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى انتهى إليهم هاشم فعبأ أصحابه، وكان فيهم قيس بن مكشوح المرادى الذى اخترق الصفوف وأبلى بلاء حسنا.

وقد جدد القعقاع طريقته السابقة وهى إيهام الفرس بوصول نجدات فأخرج بعض رجاله متفرقين بعيدا عن ميدان القتال، ثم عادوا جماعات كأنهم أمداد جديدة وكان المسلمون يكبرون كلما قدمت فرقة من هؤلاء، وكان الفزع يملك الفرس كلما رأوا المسلمين يكبرون بتوالى الإمداد عليهم ولكنهم كانوا قد عملوا على تجهيز هوادج جديدة للفيلة، وحملوا بها فى هذا اليوم على حنق وحفيظة وصارت فيلة الفرس تفعل فعلها فى الخيول، فسأل خالد ابن عرفطة بعض مسلمة الفرس الذين اعتنقوا الإسلام قبيل الموقعة عن مقاتل الفيلة حتى يضربها فى مقتل فأرشدوه إلى مشافرها وعيونها، فوكل سعد إلى القعقاع وأخيه عاصم أمر الفيل الأبيض فوضعا رمحيهما فى عينيه فقبع ونفض رأسه ورمى بسائسه فضربا مشفرة بالسيف، وفعل رجلان من بنى أسد مثل ذلك بفيل آخر ففر، ونفرت الفيلة مخترقة صفوف الفرس حتى أتت المدائن بهوادجها وعليها الرجال لا يستطيعون ردها، فكان ذلك مما اضعف الفرس وقوى المسلمين، فاشتدوا فى الحملة عليهم بعد أن فرت الفيلة، وأقبل الليل والمعركة لا تزال حامية الوطيس، وخشعت الأصوات فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وصهيل الخيل، وزئير الفرسان.

وما زال القتال دائرة رحاه حتى أصبح الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد فبات ليلة لم يبت مثلها، ورأى العرب والعجم أمرا لم يروا مثله قط، وأقبل سعد على الدعاء.

خاف القعقاع أن تهن قوى المسلمين فى صبيحة هذه الليلة التى لم يغمض للناس فيها جفن، فقام خطيبا يشجع الناس على الثبات والصبر، وسار بين الصفوف يقول: إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر، فآثروا الصبر على الجزع.

فهجم المسلمون من جديد وطوقوا جناحى الجيش الفارسى، وانفرج القلب لنجدة كل من الجناحين ولما رأى رستم ذلك حاول الهرب، ولكنه قتل.

يروى أن هلال بن علفة قتله وصعد على سريره، ونادى: قتلت رستم ورب الكعبة فلما سمع ذلك المسلمون كبروا، فلم يكن للقلب بعد ذلك ثبات، وتتابعت الهزائم بعد ذلك على الفرس، وتهافت المستسلمون منهم بالسلاسل فى العقيق فهلكوا، فقتل من الفرس فى المعركة الأخيرة عشرة آلاف خلا المقيدين وعددهم ثلاثون ألفا.

وقتل من المسلمين ليلة الهرير واليوم الذى وليها ستة آلاف وقتل منهم فى اليومين الأول والثانى ألفان وخمسمائة كانوا ثمنا لذلك النصر المبين.

نتائج القادسية:

كان انتصار المسلمين فى القادسية عظيما فى النواحى المادية والدينية والسياسية، وبيان ذلك:

١ - أن المسلمين غنموا مغانم كثيرة لم يغنموا مثلها فى حروبهم السابقة فقد غنم ضرار بن الخطاب راية الفرس المسماة "رفش كابيان" المصنوعة من جلود النمور، والتى كانت أطرافها مرصعة بجواهر قيمتها مائة ألف قطعة فارسية، ويقال إن قيمتها تقدر بمليون ومائتى ألف ولكن لم يأخذها ابن الخطاب بل أخذت منه وعوض عنها بثلاثين ألف درهم، وكان سلب رستم وحده يقدر بسبعين ألف درهم، وقد خص كل جندى ستة آلاف قطعة من نقود فارس.

٢ - أن كثيرا من قبائل العراق أسرعت إلى اعتناق الإسلام وقول كلمة الله، ولم تقم بعدها للفرس قائمة، حيث كان النصر فى القادسية إيذانا بزوال الكسروية إلى الأبد.

٣ - كانت الدولة الفارسية قد وجهت جيشها كله، وكان يزدجرد يعتقد أن قائده سيدفن المسلمين وقائدهم فى خندق سابور، فلما هزمت جيوشه هزيمة منكرة وقتل قائده،

لم يستطع أن يواجه المسلمين بمثل ما واجههم به من القوة والعدد وانهارت آماله وانحطت الروح المعنوية، فمكن هذا للمسلمين فى البلاد المفتوحة ومهد لهم الطريق لاقتحام المدائن على ساكنيها.

٤ - كانت شبه الجزيرة العربية كلها من العذيب إلى عدن، ومن الأبلة إلى بيت المقدس ينتظر نتيجة هذه الموقعة، لأنهم يرونها المعركة الفاصلة بين الوثنية والإسلام، بين الفرس والعرب، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة إلا إذا توج جنوده بنصر مبين فى معركة القادسية، فكانت الأعناق مشرئبة والآذان مرهفة لسماع الأنباء وكان أشد الناس تلهفا وتطلعا عمر بن الخطاب، فكان يخرج كل يوم يتنسم الأخبار ويسأل الركبان من الصباح حتى ينتصف النهار، ثم يرجع إلى منزله.

وبينما عمر على الطريق خارج المدينة إذ أقبل رسول سعد فسأله من أين؟؟ فأخبره بأنه جاء من القادسية ولم يزد على ذلك، وجد فى السير على ناقته وعمر يخب معه ويستخبره والبشير على ناقته مسرع لإيصال البشارة إلى أهل المدينة ولا يلتفت إلى عمر لأنه لا يعرفه حتى دخل المدينة فأخذ الناس فى الأسواق يسلمون على عمر: بأمير المؤمنين: فاستوقف ذلك نظر الرسول، فبادر بالنزول عن ناقته واعتذر لعمر، فطمأنه عمر وبين أن المسألة لا شيء فيها قائلا: لا عليك يا أخى: ثم تناول الكتاب منه، والتف الناس حولهما يسمعون كتاب ابن أبى وقاص بطل القادسية، راجع الكتاب فى محاضرات الخضرى بك ج١ ص ٣١٧.

وكانت القادسية فى المحرم سنة ١٤ هـ وقيل كانت سنة ست عشرة، وكان بعض أهل الكوفة يقول: إنها كانت سنة خمس عشرة[1].

ما بعد القادسية:

كتب عمر إلى سعد يطلب منه الوقوف عن التقدم ليريح جنوده ويستجم نشاطه ويعد قوته لمطاردة فلول الفرس، ويطهر منها نواحى البلاد التى خضعت له حتى لا يبقى فيها ما يخافه ولاسيما أن سوق العراق بعد القادسية قد دان له بالطاعة، وفر الفرس إلى المدائن يجمعون بها أمرهم للزحف من جديد أو صد تيار العرب إذا قدموا عليها.

وبعد إقامة نحو الشهرين أتى أمر الخليفة بالمسير، فتقدم إلى بابل فلقيته بقربها فلول

(١) راجع فى القادسية ابن الأثير ج٢ ص ٣٠٩ - ٣٣٨، وخلفاء محمد (عمر بن الخطاب) ص ٣٣ - ٣٨، والخضرى ج١ ص ٢٠٣ - ٢١٢.

القادسية فهزمهم وتقدم مخترقا السهل الواقع بين النهرين، وأتاه رؤساء المقاطعات فى أثناء ذلك التقدم فمنهم من رفض الدخول فى الإسلام، ومنهم من رغب فى الدخول فى الإسلام، ومنهم من رغب فى دفع الجزية، واستمر يخضع بلاد بين النهرين حتى دانت كلها للإسلام، وما زال مقيما صيف تلك السنة فى ذلك السهل حتى أتته تعليمات الخليفة وفيها يأمره بالتقدم إلى العاصمة المدائن.

فما هى المدائن:

وكانت المدائن عبارة عن مدينتين على شاطئ دجلة، فعلى الشاطئ الغربى سلويا التى يسميها المرحوم الخضرى بك "بهر سى" وباسم "المدائن الدنيا" وهى التى بناها خلفاء الإسكندر المعرفون بالسلوسيين، وعلى الشاطئ الشرقى "طيسفون" وهى التى يسميها الخضرى بك "المدائن القصوى الشرقية" بناها ملوك الفرس، وكان فيها إيوان الأكاسرة المشهور وهى على بعد ١٣٠ ميلا من القادسية إلى الشمال.

فتح المدائن: وصل سعد إلى بهر سى (المدائن الدنيا) وحاصرها حتى سئم أهلها الحصار فتركوها، فنزلها وأنزل بها الجند، وأقام بها المسلمون أياما ودجلة فى فيض عظيم، ثم خذ سعد يعد العدة للعبور إلى المدينة المقابلة لها، وهى مدائن الإيوان فدله بعض أهل البلاد على مخاضة يعبر منها إلى الجهة الشرقية لعدم وجود المراكب فأمر سعد جنوده بالعبور على عجل تحت حماية خمسمائة من الرماة، والدافع لسعد على هذه العجلة أنه علم أن يزدجرد يعمل على نقل كل ما فى المدائن القصوى من نفائس وذخائر.

ولما رأى أهل المدائن القصوى ما يفعله المسلمون تركوا بيوتهم وفر يزدجرد هاربا إلى حلوان فدخل سعد مدائن الإيوان دون أن يلقى مقاومة تذكر، وأمن الباقين من أهلها فأقاموا بها راضين بالجزية والذمة، وكان ذلك فى صفر سنة ١٩هـ - مارس سنة ٦٢٧م.

نزل سعد القصر الأبيض (إيوان كسرى)، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الدخان: الآيتان: ٢٥ - ٢٨] وصلى فيه بنية صلاة الفتح، ثم جمع سعد ما فى خزائن كسرى من الأموال والنفائس، وقسمها على الجند، فكان نصيب الفارس أثنى عشر ألفا، وكان أكثر المسلمين فرسانا لأن موقعة القادسية أكثرت الخيل لدى المسلمين، وقسم سعد دور المدائن التى خلت من قاطنيها على المسلمين فاستوطنوها،

وأرسل بالخمس ونبأ الفتح إلى عمر، وجمع الطرف والتحف التى يعرف أن المسلمين فى المدينة يدهشون ويعجبون لرؤيتها فأرسلها إليهم، كثياب كسرى وحليه وسيفه، وبعض أثاث بيته، ومن هذه الطرف بساط لكسرى طوله ستون ذراعا فى مثلها ويقال إن الأكاسرة كانت تعده للشتاء إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه، فكأنهم فى رياض ففيه طرق كالصور، وفيه فصوص كالأنهار، أرضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدر وفى حافاته كالأرض المزروعة، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب، وزهره الذهب والفضة وثمره الجوهر، وأشباه ذلك مما يحير الناظر، وكانت العرب تسمى هذا البساط القطيف، ويروى أن ابن أبى وقاص أراد إخراج الخمس منه فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين: هل تطيب أنفسكم عن أربعة أخماس؟ فرضوا فبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء، ولما وصل خمس الغنائم إلى عمر قسمه على مستحقيه، ثم قال: أشيروا على هذا القطيف فأشاروا عليه بجملة آراء، وأخيرا استقر الرأى على قسمته بين المسلمين، فخص عليا قطعة منه باعا بعشرين ألفا، وما هى بأجود تلك القطع فيما روى[1] ثم صدر أمر الخليفة بتولية سعد على ما فتحه من بلاد فارس فى الصلاة والحرب، وبتولية النعمان بن مقرن على خراج ما سقى دجلة، وأخيه سويد على ما سقى الفرات.

جلولاء – حلوان(٢):

كان رأى عمر أن يقتصر المسلمون على ما فتحوه وعدم القيام بزحف نحو الجهات الجبلية التى تفصل السواد عن العراق العجمى وأذربيجان، وعملا بتلك الأوامر أقام سعد بالمدائن صيف سنة ١٦هـ غير أنه فى خريفها عمل الفرس على قتال المسلمين فى الأراضى الجبلية الوعرة معتقدين أن المسلمين لا يستطيعون القتال فيها، وعلقوا كبار الآمال على استدراج المسلمين إلى منطقة جلولاء فاحتشدوا فيها واحتفروا خندقا واجتمعوا فيه، وأصلحوا أسوار المدينة واجتمعوا إلى قائد من أكبر قوادهم يسمى مهران الرازى، ونزل يزدجرد حلوان وأخذ يمدهم بالأموال والرجال.

---

(١) ابن الأثير جـ٢ ص ٣٥٤ – ٣٦١، والبلاذرى ص ٢٦٢ – ٢٦٣ والمجتمعات الإسلامية ج ١ ص ٨٦ – ٨٩.

(٢) جلولاء: فى شمال شرقى بغداد بين حلوان والمدائن، وفى جنوب حانقين بينهما أربعة عشر ميلا، وهى مفترق طرق أزربيجان والباب والجبال وفارس وحلوان فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد قال ياقوت فى المعجم إنها مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسر من رأى أكبر منها، وهى بقرب الجبل، وأكثر ثمرها التين، وبها رمان ليس فى الدنيا مثله، وحواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة أدواء.

ووصلت أخبار هذا الاستعداد سعدا فطير الخبر إلى الخليفة فأمره بأن يرسل لهم جيشا بقيادة هاشم بن عتبة، وأن يجعل من رؤساء هذا الجيش القعقاع بن عمرو بطل القادسية.

سار هاشم فى اثنى عشر ألفا حتى وصل جلولاء فحاصرها وقضى فى حصارها أكثر من شهرين لم يصل فيها إلى نتيجة حاسمة فطلب من سعد نجدة فأنجده بعمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدى وقيس بن مكشوح.

ولما طال أمد الحصار عقد جلسة عسكرية قرروا فيها الهجوم على الخندق واقتحامه مهما كلفهم ذلك، وكان بطل هذا الهجوم القعقاع الذى حمل على الخندق فحمل معه المسلمون حتى اقتحموه واستولوا على البلدة عنوة ففر الفرس إلى خانقين، فتبعهم القعقاع ومن معه، ورأى يزدجرد أن بقاءه فى حلوان أصبح غير ممكن ففر إلى الرى فسار القعقاع إلى حلوان، فاستولى عليها بعد مقاومة ضعيفة، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ١٦هـ، وبقى القعقاع مرابطا فى حلوان وهى نهاية العراق العربى لأن أوامر الخليفة كانت تقضى بالوقوف عند حدود السهول الشرقية للعراق، وعدم الزحف إلى ما بعدها من أرض الجبال مؤثرا سلامة المسلمين على كل ما يأتى به النصر.

وكانت الغنيمة من حلوان عظيمة حتى خص كل مقاتل تسعة آلاف وقيل أكثر، وجاء بالخمس إلى المدينة زياد بن أبيه وكان صغيرا، ومعه كتاب من سعد يطلب فيه أن يسمح له الخليفة بمطاردة الفرس فيما وراء الجبال، ولكن عمر كان عند رأيه فى وجوب وقف التقدم الإسلامى فترة من الزمن حتى تثبت قواعده وتتوطد أركانه فيما فتح من البلاد.

تكريت: الموصل (١):

ولما كان هذا هو أمر الخليفة، فقد وجه سعد مجهوداته إلى إخضاع ما بقى من العراق فى الشمال حتى يأمن غارات الفرس والروم فى هذه الناحية، وكان معظم شمال العراق فى يد الدولة الرومانية.

وبينما هو يأخذ أهبته للعمل إذا به يعلم بتجمع الفرس والروم والعرب من إياد وتغلب والنمر بتكريت فكتب إليه الخليفة: أن سرح إليهم عبد الله بن المعتم: فسار إليهم وحاصرهم أربعين يوما ثم أرسل إلى العرب المناصرين للروم يدعوهم إلى نصرته ويبين لهم أنهم أبناء

(١) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهى إلى بغداد أقرب على الضفة اليمنى لدجلة، وكانت قلعة حصينة بناها الروم عند تغلبهم على العراق، والموصل مدينة عظيمة على طرف دجلة وسميت موصلا لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، فهى باب العراق ومفتاح خراسان.

عمومة فاستجابوا لدعوته فأمنهم، وقال لهم: إذا سمعتم تكبير المسلمين، فكبروا: فأجابوه إلى ذلك فأمر جنده بالهجوم والتكبير، فلما سمعه العرب كبروا مع المسلمين فظن الفرس أن المسلمين هجموا عليهم من الخلف فاستبقوا إلى أبواب الحصن يريدون الخروج فأخذتهم سيوف المسلمين من كل جهة فانهزموا شر هزيمة ثم تقدم المسلمون إلى الموصل فصالحهم أهلها، وصارت جميع أعمال الموصل للمسلمين.

وأرسل سعد فصيلة يقودها ضرار بن الخطاب لفتح المدن الواقعة فى أواسط الفرات، فاستولت على قرقيسيا وهيت[1].

وبذلك أصبحت كل الأراضى الواقعة بين النهرين فى يد المسلمين، فأقاموا بها الجنود والحاميات[2].

تمصير الكوفة والبصرة(٣):

فى سنة ١٧ اختطت الكوفة، وكان سبب تخطيطها أن المسلمين اتخذوا المدائن قاعدة حربية لهم بعد موقعة القادسية واستمرت كذلك حتى شاهد "عمر بن الخطاب" تغيرا فى وجوه من نزلوها، وضعفا فى أجسامهم فسألهم عن سبب ذلك فقالوا له: غيرتنا وخومة البلاد، وقيل إن "حذيفة بن اليمان" هو الذى كتب إلى عمر يقول له: إن العرب قد رقت بطونها، وجفت أعضادها وتغيرت ألوانها، وكان مع سعد يومئذ فكتب عمر إلى سعد: أخبرنى ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم: فكتب إليه سعد: إن الذى غيرهم وخومة البلاد فإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان: فكتب إليه عمر: أن ابعث سلمان الفارسى وحذيفة رائدين فليرتادوا منزلا بريا وبحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر: فأرسلهما سعد حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل[4]، فأعجبهما الموقع فنزلا وصليا فيه ودعوا الله أن يجعله منزل الثبات للمسلمين، وبعد أن وافق الخليفة على ذلك المكان انتقل سعد واتخذه معسكرا للمسلمين، وأقام المسلمون أول الأمر فى خيام نصبوها تنفيذا لأوامر الخليفة.

---

(١) قرقيسيا: بلدة على نهر الخابور عند مصبه فى الفرات، وهيت: بلدة على الفرات إلى جهة بغداد فوق الأنهار.

(٢) ابن الأثير ج٢ ص ٢٦٨، والخضرى ج١ ص ٢١٥ – ٢٢٦.

(٣) الكوفة قرب الحيرة على نهر من روافد الفرات والبصرة قرب ثغر الأبلة.

(٤) يسمى بعض الناس الأرض التى فيها طين وحصباء ورمل كوفة ويسمى بعضهم الآخر المواضع المستديرة من الرمل كوفائى، وفيل التكوف الاجتماع البلاذرى ٢٧٥، وابن الأثير ج٢ ص ٣٦٨، ويروى أن سعدا هو الذى أخبر عمر بتغير ألوان العرب، كما يروى أن الذى قال: إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها: ... إنما هو عمر لا سعد.

ولما استقروا بها، ورجع إليهم ما كانوا قد فقدوا من قوتهم، استأذن، أهل الكوفة في بناء البيوت بالقصب، واستأذن فيه أهل البصرة أيضا فكتب إليهم عمر يقول:

إن العسكر أشد لحربكم وأذكر لكم، وما أحب أن أخالفكم، فابنى أهل البصرين بالقصب[1].

ولا ينبغى أن تمر هذه اللحظة الخاطفة من العبقرى عمر بدون التعليق عليها بفهم ما أراده منها فعمر يرى أن استقرار أوتاد القصب أعمق من أوتاد الخيمة، وأن هذا يؤدى إلى الاستنامة إلى الأرض والاطمئنان إليها، فيعيشون حياة الدعة والهدوء وهو يريدهم متوثبين دائما يمكنهم أن يرفعوا خيامهم فى أية لحظة بسرعة، ولا تقيدهم عوائق وعلائق قد تهبط بالقوى المندفعة من الجزيرة، ولكنه مع ذلك كان مرنا فقد قال: وما أحب أن أخالفكم: لا يحب أن يفرض عليهم رأيا ولا يحب أن يخالفهم فى شيء تقتضيه ضرورات الحياة، وتطورها ولا أن يكونوا غير إخوانهم فى الشام الذين يسكنون المدن ففتح لهم الباب فبنوا بيتوهم بالقصب، وشاء الله أن يقع حريق فى كل من الكوفة والبصرة فبعث سعد نفرا إلى عمر يستأذنه فى البناء باللبن ويخبرونه بالحريق أيضا فأذن لهم وقال: افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة: فرجع القوم إلى الكوفة بذلك[2].

وانتدب سعد أبا هياج بن مالك لتخطيطها، وكان المسجد أول ما خط تعبيرا عن فكرة الجماعة وتمثيلا لدعوتها، وإيحاء بالذى تهاجر من أجله، ثم مرافق الدولة، دار سعد الوالي، وبيوت الأموال، وسوق للبيع والشراء ثم تتابع الناس فيما رسم لهم أبو هياج.

وكان قد خطط الكوفة على نظام هندسى بارع فجعل عرض الشوارع الرئيسية أربعين ذراعا أو ثلاثين حتى لا يحجب هواء البادية عن العرب الذين نشأوا فى الجزيرة وجعل وسط المدينة ميدانا فسيحا بنى فيه المسجد السابق الذكر، وأحاطها بالحدائق الكثيرة والنخيل.

وقد خططت الكوفة على نسق تخطيط الفسطاط فقسمت تقسيما قبليا فلم توزع أرضها بين الناس من حيث هم أفراد فى هذا المجتمع المدنى الناشئ الذى يقبلون عليه، ولكنها الفطرة التى فطروا عليها، ولو فعلوا غير ذلك لكانت طفرة فى التطور ويكفيهم فى هذه المرحلة أنهم انتقلوا من حياة البادية إلى حياة المدينة ممثلة فى الكوفة والبصرة والمدينة

---

(١) ابن الأثير ج٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨، والبلاذرى ص ٢٧٤، ٢٧٥، والخضرى ج١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧، والدكتور حسين إبراهيم ج١ ص ٢١٩.

(٢) الكامل ج٢ ص ٣٩٨، والخضرى ص ٣١٧.

كفيلة بمحو الفروق شيئا فشيئا، فلم تدع كل قبيلة تعيش وحدها، ولنفسها وإنما ربطتها بأنواع من الصلات، صلات الجوار وصلات العطاء، والمسجد الجامع والأفنية والأسواق، وما إلى ذلك من الصلات التى جعلتها تأتلف مع بعضها، وتكون كتلا جديدة يسميها المؤرخون الأسباع، وهذه الأسباع خطوة جديدة فى صياغة المجتمع، فقد قللت من كثرة القبائل وقد ظلت الكوفة على هذه الأسباع زمن عمر بن الخطاب، وعثمان، وعلى، وجزء من خلافة معاوية.

فلما كانت ولاية زياد بن أبيه نقض البناء السباعى لكثرته، وبنى بناء آخر أقرب إلى التوحيد فجمع أهل الكوفة فى أربعة أرباع[1] وكان وإلى الكوفة يعين الولاة من قبله على الباب وأذربيجان والرى وأصبهان والموصل وقرقيسيا، وكان أكثر من نزل الكوفة من عرب اليمن.

ومن المعروف عن سكان كل من البصرة والكوفة، أنهم كانوا ينتسبون إلى المدينة، وتنتسب الفتوح إليهم فيقال فتوح أهل الكوفة، فتوح أهل البصرة ويقاتل يمن البصرة يمن الكوفة مما يدلنا على أن الولاء لم يكن للقبيلة، ولا للأسباع ولا للأرباع وإنما كان للمدينة نفسها، وقد تعاونت كل مظاهر الحياة السياسية والإدارية والحربية على تقوية هذا الشعور وتنميته فمسجد المدينة، وعاملها وشرطتها وتنظيمها، وفتوحها كل هذا كان يقوى الشعور المدنى على الشعور القبلى ويكون المجتمع الجيد.

تحدثنا عن الكوفة بشيء من الإيضاح والتفصيل، وتشابكت معها البصرة فى بعض هذا التفصيل أما تمصيرها، فيرجع إلى أن المسلمين كانوا قد استولوا على الأبلة قريبا من مصب دجلة والفرات بالخليج الفارسى وتسمى الآن جبلة، فلما انسحب المسلمون من سواد العراق قبل معركة القادسية كان هذا الثغر من البلاد التى تركوها، فعاد إلى أيدى الفرس، وبعد انتصار المسلمين فى القادسية تقلص ظل الفرس عن جنوب العراق، فأمر عمر سعد بن أبى وقاص بإرسال فصيلة من جنده إلى الأرض المعروفة بشط العرب وهى سهل على نهر صغير يجمع دجلة والفرات ويصب فى الخليج الفارسى (العربى) والذى دعا عمر إلى إرسال هذه الفصيلة رغبته أن يصبح العراق كله فى أيدى المسلمين، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فتح ثغرة ثانية فى الجدار الفارسى فمن الأبلة يمكن الوثوب إلى داخل إيران فالهند ويشتغل

(١) المجتمعات الإسلامية ص ١٠٣ ، ١٠٤، وراجع فى تمصير الكوفة البلاذرى ص ٢٧٤ – ٢٨٧، والخضرى ج١ ص ٢٢٦، ٢٢٧، وتاريخ الإسلام السياسى ج١ ص ٥١٧، ٥١٨.

الفرس فوق ما هم فيه من شغل فأرسل سعد عتبة بن عزوان فاستولى على الأبلة من جديد، وعسكر بموضع البصرة سنة ١٤ هـ وصار يوجه الجيوش من موضعه إلى شرق فارس.

وفى سنة ١٧ اتخذت الأبنية بالبصرة كما اتخذت بالكوفة معا فى سنة واحدة والذى تولى تمصيرها عاصم بن دلف، فهى وإن نزلها المسلمون سنة ١٤ إلا أن تخطيطها لم يتم إلا سنة ١٧، ومن هنا نشأ اختلاف المؤرخين فى الزمن الذى مصرت فيه[1].

وكان معظم سكان البصرة من ربيعة ومضر، ثم وفدت إليها جاليات من الهند والصين كما تردد عليها كثير من العرب للتجارة، وكان من أثر ذلك أن ظهرت فيها حياة أدبية جديدة وتأثرت الحركة الإسلامية بالفلسفة اليونانية القديمة، والفلسفة الهندية، كما أنه لم يمض على تأسيس البصرة عشرون سنة حتى أصبحت من أهم المراكز التجارية فى العالم الإسلامي، وخاصة فى التجارة بين الهند والصين بحرا، وبذلك حلت محل الأبلة على الخليج الفارسى ولم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى.

وبتمصير هذين المصرين (الكوفة والبصرة) حلت الكوفة محل الحيرة عاصمة العراق الأعلى وحاكمه "سعد" وحلت البصرة محل الأبلة وعاصمة العراق الأدنى وحاكه "عتبة بن غزوان" وهناك فترات من التاريخ كان يجمع فيها العراق الأعلى والأدنى لأمير واحد، وسرعان ما زادت أهمية البصرة والكوفة حتى أصبحتا من أعظم مراكز العلم والسياسة والحرب فى البلاد الإسلامية، ولهما شهرة عظيمة فى العالم الإسلامى كله[2].

موقعة نهاوند (٣)

نهاوند أو فتح الفتوح:

كان أبو سبرة قد أرسل وفدا إلى عمر بن الخطاب فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس، ومعهم الهرمزان، فلما قدموا به المدينة وأسلم، قال عمر للوفد: لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة فلهذا ينتفضون بكم: فقالوا: ما نعلم إلا وفاء: قال: فكيف هذا؟؟ فلم يشفه

(١) البلاذرى ص ٣٤١ – ٢٦١، وابن الأثير ج٢ ص ٣٢٩، والخضرى ج١ ص ٣٢٧، وحسن إبراهيم ج٢ ص ٥١٧، ٥١٨، ويروى ابن الأثير ج٢ ص ٣٢٩، أن التمصير كان سنة ١٦ بعد موقعة جلولاء.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم ج١ ص ٥١٨.

(٣) نهاوند: مدينة عظيمة فى جنوب همدان بينهما ثلاثة أيام (١٤ فرسخا) وهى من أقدم الجبال فى فارس، وكانت نهاوند سنة ثمان عشرة على الأصح.

أحد منهم إلا أن الأحنف قال له: يا أمير المؤمنين إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا وإن ملك فارس بين أظهرهم ولا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنا لما نأخذ شيئا بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذى يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا، فلنسح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس: فقال عمر: صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه: فعمر اقتنع بوجوب انسياح المسلمين فى بلاد فارس، وأن وقوفهم على حدود بلاد الجبال الفاصلة بين العراق وفارس يعرضهم لخطر عظيم، وزاد هذا الأمر تأكيدا ورود الكتب من قواد الجيش الإسلامى فى تلك الجهات إلى سعد بن أبى وقاص يخبرونه فيها بتجمع الفرس فيما وراء الجبال للانقضاض عليهم فى المدائن وما بعدها من أرض السواد، ويطلبون منه أن يأذن لهم بمطاردة الفرس فى أرض الجبال.

ولما كان سعد يعلم رأى عمر الأول لم يشأ أن يبت برأى إلا بعد استشارته فكتب إليه كتابا أطلعه فيه على موقف الجيش الإسلامى، وعلى رأى قواده فى مطاردة الفرس الذين جمعوا نحو خمسين ألفا ومائة ألف مقاتل، وقد أدى هذا الكتاب إلى تغير فى سياسة عمر نحو فارس فإنه رأى أن الوقت قد حان لإزالة بقايا القوات الفارسية الملتفة حول يزدجرد فى خراسان، وحقيقة أن يزدجر أراد أن يجرب حظه مرة أخرى مع المسلمين فأرسل إلى جميع الولايات الفارسية الباقية فى طاعته يطلب منها إرسال جنودها، وقد لبت الولايات النداء، فتقاطرت الجنود من طول البلاد وعرضها، من شواطئ بحر قزوين إلى المحيط الهندى، ومن نهر جيحون إلى الخليج الفارسى، وجاءت الأخبار إلى المسلمين بالعدد المتقدم بقيادة فيرزان، وبأنها تقدمت إلى همذان بقصد الزحف إلى حلوان ومنها إلى الكوفة.

عمر يجمع مجلس الشورى:

وإزاء ذلك الخطر الداهم جمع عمر مجلس الشورى وعرض عليه الأمر فأشار عثمان ابن عفان بإخراج جيش الشام وجيش اليمن إلى فارس، وأن يخرج الخليفة مع جيش من الحجاز فيضرب جموع العجم بجموع المسلمين.

وقام على بن أبى طالب ففند هذا الرأى، وبين أن جيوش الشام وجيوش اليمن إذا خلت منهم البلاد نشبت الثورات كما أن المدينة إذا خلت من الخليفة والجند طمع

فيها كل طامع، وأن الفرس إذا علموا بخروج رأس قوة المسلمين استبسلوا فى القتال وقال: هذا أمير العرب وأصلها، فكان ذلك أشد لكلبهم عليك.

فلما ألقى على كلمته استصوبها عمر وأثنى عليه وقرر البقاء فى المدينة وأرسل إلى النعمان ابن مقرن يأمره بالمسير إلى ماء لتجتمع الجيوش عليه: فإذا اجتمعوا إليه سار إلى الفيرزان، ومن معه.

مسير الجيوش والقتال:

سار جيش من الكوفة بقيادة حذيفة بن اليمان، وسار جيش آخر من البصرة بقيادة أبى موسى الأشعرى، وأمر حذيفة وأبا موسى أن يسلما قيادة الجيش إلى النعمان عند تلاقيهما، ثم سير الخليفة جيشا ثالثا من الحجاز بقيادة المغيرة بن شعبة، فبلغ عدد الجيش ثلاثين ألفا وكان فيه الكثير من الأبطال أمثال طليحة وعمرو بن معد يكرب، وعمر بن أبى يلمى الغنوى والقعقاع.

فلما اجتمعت هذه الجيوش للنعمان سار حتى وصل إلى حلوان وانتظر بها فترة من الزمن ليختبر الطريق، فأرسل الطلائع وعادت تخبره بأن الفرس معسكرون قرب نهاوند وأن الطريق إليها مأمونة، فتقدم إليها المسلمون فلم يجدوا مقاومة، وتواجه الجيشان وتناوشا يومين ثم قرر الفرس الاعتصام بالحصون والخنادق، والخروج لمناوأة المسلمين كلما اقتضت الظروف.

خشى النعمان أن يطول الأمر فجمع مجلسا عسكريا للمشاورة وعرض الأمر على نخبة قواده الذين عرفوا بالبسالة وأصالة الرأى فتشعبت الآراء، وبعد محاورات اتفق الجميع على رأى طليحة الأسدى وهو أن ينشب المسلمون مع الفرس معركة ثم يظهرون بمظهر الهزيمة وينسحبون متقهقرين مظهرين الانكسار - وكان المسلمون فى المعارك السابقة مع الفرس لم يجربوا هذه الخطة - فيلحق الفرس بهم ويتبعونهم وفى الوقت نفسه يكون هناك كمين من المسلمين يحول بين الفرس ونهاوند، وبالفعل خرجت هذه الفكرة من حيز القول إلى حيز العمل، فتولى القعقاع قيادة الفرقة التى تظهر الانسحاب، وقاد النعمان الكمين، وانسحب المسلمون أمامهم فطمعوا فيهم، وتركوا خنادقهم، وخرج الكمين من خلفهم، وثبتت الفرقة الأمامية ودرات معركة من أشد المعارك وأعنفها، وجرت الدماء حتى زلقت الدواب فى الدم، ومن بينها فرس النعمان زلقت فى الدم فسقط عنها النعمان ومات وقيل أصابه سهم

فقتله فحمله أخوه نعيم وسجاه بثوب وأخذ الراية قبل أن تقع وناولها حذيفة فأخذها وتقدم إلى موضع النعمان وترك نعيما مكانه وكتموا موت النعمان حتى لا تهن قوتهم، وهم فى المعركة، فما جن عليهم الليل حتى انهزم الفرس هزيمة أعمتهم عن الطريق فسقطوا فى هاوية بعيدة الغور، ولم ينج منهم إلا الطريد.

نتائج نهاوند:

١- كانت هزيمة الفرس فى نهاوند تامة إذ خسروا فيها ثلاثين ألفا، وهرب الباقون إلى مرتفع قريب فلم ينجهم فرارهم إذ تحول المسلمون إليهم وقتلوا منهم ثمانين ألفا وقتل فيرزان الذى حاول النجاة.

٢- غنم المسلمون من هذه الموقعة غنائم عظيمة، وجاء الهربذ صاحب بيت النار يطلب الأمان لنفسه ولمن يريد على أن يسلم المسلمين ما وضع عنده من خزائن كسرى التى كان قد ادخرها لنوائب الزمان، فأخذها المسلمون وبعثوا بها إلى عمر مع بشرى الفتح وخمس الغنائم.

٣- كانت نهاوند خاتمة الحروب المهمة فى فارس، وأصبح فى مكنة المسلمين بعدها الاستيلاء على بلاد الفرس كلها، ولهذا سميت "فتح الفتوح" لأن المسلمين لم يشتبكوا بعدها مع الفرس فى معركة مثلها.

٤- جاء إلى المسلمين جميع ولاة غرب فارس يطلبون الدخول فى الطاعة على أن يدفع كل منهم الجزية واعتنق كثير من الناس الإسلام، ومن هؤلاء أهل الدينور، والصيمرة، وهمذان، والماهين.

ولما وصل الرسول إلى عمر بالفتح بكى على النعمان بكاء شديدا حتى سمع له نشيج وترحم عليه، ثم صعد المنبر فبشر المسلمين بما فتح الله عليهم، ومع حدث فى نهاوند بقى فى قلب يزدجرد أمل فى مقاومة المسلمين، وردهم عن بلاده ولذلك جمع جيشا جديدا فى الرى[1] بقيادة أسفنديار - شقيق رستم صاحب القادسية - فتقدم المسلمون نحو الرى فضموا بالاستيلاء عليها انتصارا جديدا إلى انتصاراتهم ال سابقة، وتقهقر أسفنديار إلى أزربيجان[2] فتعقبه المسلمون إليها، وهزموه وأسروه، ودخل الإسلام.

---

(١) الرى: مدينة مشهورة من أمهات المدن بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخا، وهى بين طبرستان وخراسان قريبة من بحر الخزر.

(٢) أرض واسعة الأرجاء تحدها بلاد الجبال جنوبا والكرد غربا والديلم وبحر قزوين شرقا وأرمينية وموقان شرقا.

أما يزدجرد فقد هرب من الرى إلى أصفهان[1]، ولكنه لم يكد يقيم بها حتى فتحها المسلمون فرحل إلى كرمان[2] ثم بلخ[3]، ثم إلى مرو عاصمة خراسان فظن أن النوى قد استقر به فبنى بيتا للنار، واتخذها قاعدة له وراسل من يهمه أمر فارس، وعلم بذلك الأحنف ابن قيس فسار إليه وافتتح فى طريقه هراة ثم قصد مرو الشاهجان فخرج منها يزجرد إلى مرو الروذ[4]، واستنجد بالترك فأنجدوه وظلت مقاومته ومناوشته للمسلمين عدة سنين حتى تخلى عنه الترك فترك مرو وعبر جيحون ليسترجع بعض قواه بعيدا عن أعين المسلمين، لكنه أخفق فى كل ما أراد وظل على عناده رغم نصح أخصائه بالدخول فى طاعة المسلمين، وعاش يزدجرد إلى أيام خلافة عثمان وفى أثنائها مات ميتة ذليلة.

إذن عمر بالانسياح فى بلاد الفرس:

رأى عمر بعد موقعة نهاوند، وما ترتب عليها من فتح كثير من البلاد أن يأذن لجيوشه بالانسياح فى بلاد فارس حتى يقضى على كل من تحدثه نفسه بالخروج ويهدم آمال يزدجرد فى استرداد ملكه، فعين رؤساء الجنود الذين رأى إرسالهم لفتح تلك البلاد، وأهمها: خراسان[5] ، كرمان، مكران، سجستان، اصطخر الباب[6] وكان فتح هذه البلاد سهلا لأنه بسقوط عاصمة الفرس، وفرار يزدجرد خارت بقية أجزاء المملكة العتيدة، ولا نريد أن نطيل عليكم بذكر الحروب التى حدثت فى تلك الرقعة الفسيحة ويكتفى أن تعرفوا أن النصر ساير أعلام المسلمين وامتدت الرقعة الإسلامية من نهر الفرات غربا إلى نهر جيحون والسند شرقا، ومن بلاد أرمينية وبحر الخزر شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا فى مدة لا تتجاوز سبع سنوات مما لا يزال محل دهشة العالم وإعجابه حتى اليوم، ولكننا قد عرفنا الأسباب التى ساعدت على الفتح، وقد تحقق وعد الله، فأظهر دينه وصدق عبده وأعز جنده.

---

(١) مدينة مشهورة من أعلام المدن وهى من نواحى الجبل.

(٢) كرمان: ولاية كبيرة بين فارس ومكران وخراسان وسجستان.

(٣) بلخ: مدينة بخراسان بين جوزجان وطخارستان.

(٤) مرو: إذا ذكرت أريد منها مرو الشاهجان، ومرو الروذ مدينة قريبة منها بينهما خمسة أيام، وهى على نهر عظيم، فلهذا سميت به، وهى صغيرة بالنسبة لمرو عاصمة خراسان.

(٥) خراسان: إقليم عظيم يقع شرق بلاد فارس وعاصمته مرو وبه مدن عظيمة منها بلخ ونسا وهراة.

(٦) الباب: اسم لمدينة عظيمة على بحر طبرستان.

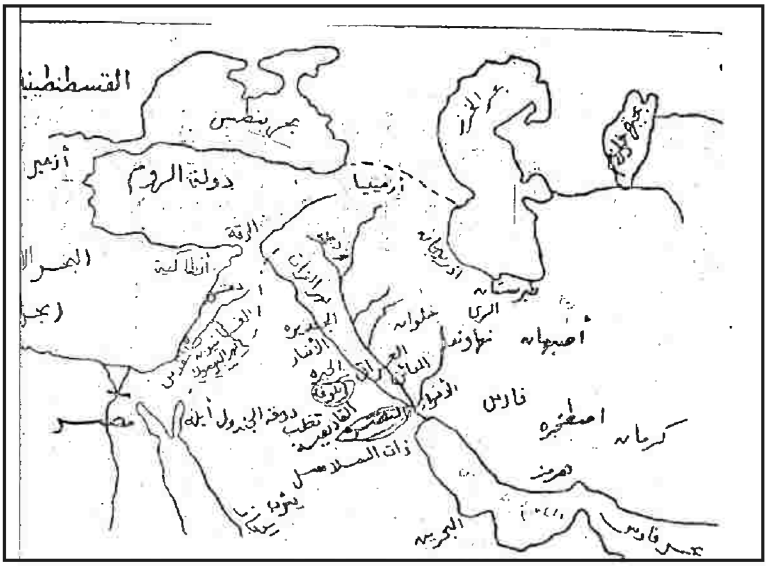

فتح دمشق:

انتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم، وحدثت أجنادين وانهزم الروم فيها أيضا ووصل الأمر بعزل خالد بن الوليد، وتولية أبى عبيدة بن الجراح إمارة الجيش كله.

فلما أخذ أبو عبيدة إمارة الجيش استخلف على منطقة اليرموك بشير بن كعب الحميرى وسار حتى نزل بمرج الصفر – بين دمشق والجولان – وسار يتبع الفلول وهو لا يدرى أيجتمعون أو يتفرقون ؟؟ فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل – موضع بالشام قرب دمشق – وأن مددا من حمص قد أتى أهل دمشق قصبة بلاد الشام من قديم – واقعة على جملة أنهار أشهرها نهر بردى – فكتب إلى عمر يستطلع رأيه فى البداءة بأى الناحيتين فأجابه بقوله: أما بعد فابدءوا بدمشق، وانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم، فإذا افتتحت سار خالد إلى حمص وترك شرحبيل وعمرو بن العاص بالأردن وفلسطين: فصدع أبو عبيدة بالأمر وسرح إلى فحل عشرة قواد عليهم عمارة بن مخشن، وبعث ذا الكلاع فنزل بين دمشق وحمص ليكون ردءا، وبعث علقمة بن حكيم ومسروقا فنزلا بين دمشق وفلسطين، وبذلك أمن أبو عبيدة من وصول المدد إلى دمشق إذا ما حاصرها.

وبعد أن جمع جيوشه واطمأن لنجاح الترتيب الذى وضعه سار إلى دمشق بمن معه فنزل خالد بالباب الشرقى، ونزل أبو عبيدة بباب الجابية، ونزل عمرو بباب الفراديس ونزل شرحبيل بباب توما ونزل يزيد بباب كيسان.

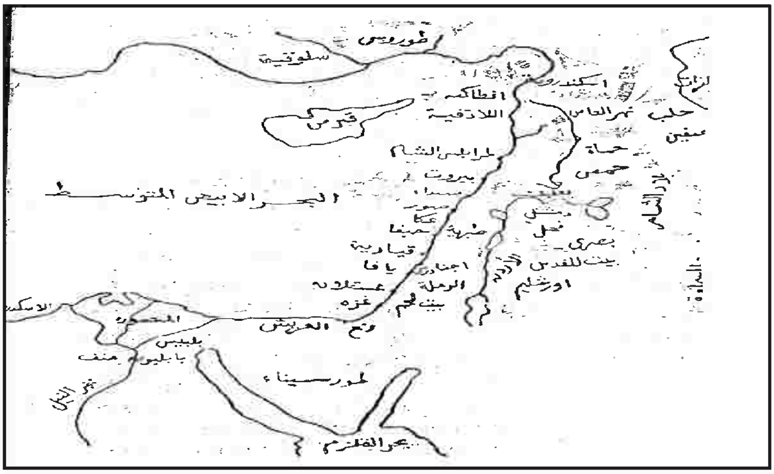

وبهذا العمل أحاط المسلمون بالمدينة، وحاصروها، وشددوا عليها الحصار ولا يخامرهم ريب فى أنها ستفتح لهم أبوابها.

لكن أهل دمشق كانوا يتطلعون إلى هرقل وينتظرون منه المدد فصبروا على الحصار سبعين ليلة كان المسلمون خلالها يرمون المدينة بالمجانيق والنبال.

فلما يئسوا من الغياث وأيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم سقط فى أيديهم وخارت قواهم، وانكسرت حميتهم فلم يكن لهم بد من التسليم، وقد حدث حادث عجل بإنهاء هذه الحالة.

ذلك أنه ولد لبطريق المدينة مولود، فصنع طعاما، ودعا إليه القوم فأكلوا وشربوا، وتركوا مواقفهم، ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا ما كان من خالد فإنه كان لا ينام ولا ينيم ولا يبيت.

وكان قد اتخذ حبالا كهيئة السلالم وأوهاقا، فتقدم هو ومن معه من قواد جيش العراق

وفيهم القعقاع، وأمثاله، وقال لجنده: إذ سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب: وقد تم كل ذلك بسرعة فائقة، ووثب كثير من المسلمين وانتهى خالد إلى من يليه من الروم فقتله، وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما الحال واشتغل أهل كل ناحية بمن يليهم خشية الاقتحام فلم يذهبوا لنجدة أهل الناحية التى دخل منها خالد وأصحابه وقد أخذ خالد بعد دخوله إلى المدينة يعمل بالسيف فى المقاتلة حتى قتل كل من يليه من الجنود، وأدرك ما أراد عنوة فقام من يلى الأبواب الأخرى بمفاوضة المسلمين الذين فى جهتهم وعرض الصلح عليهم بعد أن كانوا يرفضون ما عرضه المسلمون من الصلح على المقاسمة، فدخل أهل كل باب بصلح وهم لا يعلمون ما ألجأ القوم إلى الصلح بعد رفضه؟؟

فلما اتفق الطرفان على الصلح قالوا للمسلمين: اذهبوا معنا إلى صاحبكم الذى يقاتل إخواننا تكفوه عن الحرب: فكف خالد وأصحابه وأجروا ما فتحوه عنوة مجرى ما فتح صلحا[1].

وكان الصلح على المقاسمة: الدينار والعقار، وعلى كل رأس دينار وعلى أن يكون أهل دمشق آمنين على أنفسهم وأمتعتهم وبيوتهم وكنيستهم وأسوار مدينتهم لا يمسهم أذى أو ضرر أو تخريب أو مصادرة وأرسل أبو عبيدة إلى عمر بالفتح فوصل كتاب عمر إلى أبى عبيدة يأمره بصرف خالد وفرقته إلى العراق لنجدة سعد بن أبى وقاص بالقادسية فأرسل أبو عبيدة الجيش مع هاشم بن عتبة وأبقى خالدا معه لحاجته إليه فى فتوح الشام.

فحل:

انتهى المسلمون من فتح دمشق وتبعا لرأى الخليفة وما يوجبه الحزم قصدوا فحلا إذ من الخطأ فى الرأى أن يتجهوا إلى حمص أو غيرها من بلاد الروم ووراءهم تلك القوة العظيمة التى قال عنها المؤرخون: إنها ثمانون ألفا.

خلف أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان على دمشق وسار إلى مدينة فحل وأمير الناس شرحبيل إذ هو صاحب السلطان فى تلك المنطقة (بلاد الأردن) من قبل أبى بكر – وكان

---

(١) تجرى بعض الروايات بأن خالدا هو الذى صالح أهل دمشق القريبين من الباب الشرقي، وأن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة وأنه لما قيل لأبى عبيدة: والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه؟ قال: إنه يجيز على المسلمين أدناهم: وأجاز صلحه، وتجرى بعض الروايات كذلك بأن عزل خالد كان والجيوش محاصرة دمشق، ولكن هل علم خالد بأمر العزل فى أثناء الحصار أم لم يعلم إلا بعد الفتح؟ خلاف فى الرواية.

على مقدمة الجيش خالد بن الوليد وعلى الجناحين أبو عبيدة وعمرو، وكان قائد الخيل ضرار بن الأزور وعلى المشاة عياض بن غنم.

ولما وصل الجيش إلى فحل حاصرها حصارا شديدا، وبعد حصار دام طويلا ظن الروم أن المسلمين فى غفلة عنهم فهجموا عليهم هجمة قوية فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا ليلتهم ويومهم إلى الليل فلما جن عليهم الليل حاروا فى أمرهم وأرادوا الرجوع فلم يهتدوا إلى المكان الذى خرجوا منه فانهزموا إلى الوحل – كان الروم قد بثقوا عليهم المياه فأردغت الأرض ووحلت – واغتم المسلمون لذلك بادئ الأمر، ولكن تبين أن ذلك فى مصلحتهم فقد قتل قائدهم سقلار بن مخراق، وطاردهم المسلمون وركبوهم وهم متورطون فى الرداغ فكان الوحل الذى كرهه المسلمون أكبر مساعد لهم على النصر، ففتكوا بالروم ولم يفلت منهم إلا الشريد، واستولى المسلمون على فحل وكانت العرب تسمى تلك الغزاة ذات الردغة، وفحل وكانت بعد دمشق على أصح الأقوال، وبعد فحل انصرف أبو عبيدة بخالد يريد حمص.

فتح بلاد ساحل دمشق:

لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان على دمشق وسار إلى فحل سار يزيد إلى مدينة صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهى سواحل دمشق، وكان على مقدمته أخوه معاوية ففتحها كلها فتحا يسيرا، وبعث فصيلة إلى تدمر وأخرى إلى حوران والبثنية فصالح أهلوها المسلمين.

بيسان وطبرية:

ولما قصد أبو عبيدة حمص أرسل شرحبيل وعمرو إلى بيسان فقاتل أهلها ثم صالحوهما على صلح دمشق، وكان قد بعث قائدا آخر إلى طبرية فصالحه أهلها على صلح دمشق أيضا وأن يشاطروا المسلمين المنازل فنزلها القواد وكذا فتح الأردن صلحا.

موقعة مرج الروم:

ولما وصل إلى هرقل خبر هزيمة جنده فى دمشق والأردن وأن نية المسلمين اتجهت نحو حمص أرسل إلى المسلمين جيشا تحت قيادة توذر البطريق وأردفه بآخر مثله وعليه شنس الرومى مددا له وردءا لأهل حمص.

التقى المسلمون بالجيش الرومى فى مرج الروم غربى دمشق فكان أبو عبيدة بإزاء شنس

وخالد بإزاء توذر، وأصبح المسلمون وأمامهم شنس والأرض خلو من توذر، ولكن ابن الوليد كان يقظا فقد علم أنه خرج تحت جناح الظلام إلى دمشق حسب خطة حربية دبرها الروم وهى أن يخرج توذر إلى دمشق فيهاجمها ويستولى عليها، وأن يعمل شنس على شغل المسلمين عنها فأجمع رأيه ورأى أبى عبيدة على أن يتبعه فاقتفى أثره، وقد ظن ذلك الغر أنه سوف لا يلقى إلا حامية دمشق، وأنه سيقتص للروم، ويضع يده على دمشق، ولم يدر أن خالدا فى أثره وأنه يتحرق لملاقاته فما أن نشبت المعركة بينه وبين يزيد بن أبى سفيان - الذى خرج لملاقاته حين بلغه مسيره إليه - حتى لحقهم خالد وطلع عليهم من خلفهم فأخذتهم رماح يزيد من الأمام وسيوف خالد من الخلف فلم يفلت منهم إلا الشريد وقتل خالد توذر وغنم المسلمون ما شاءوا من ظهر وثياب، وناهد أبو عبيدة بعد خروج خالد إثر توذر جند شنس فهزمهم أيضا وقتل أبو عبيدة شنس وامتلأ المرج من قتلاهم فأنتنت منهم الأرض وتبعهم المسلمون إلى حمص، ولحقهم خالد بها.

فتح حمص:

وصل المسلمون بعد انتصارهم فى مرج الروم إلى حمص - شمال دمشق - فحاصروها الشتاء كله ونالتهم مشقة عظيمة من شدة البرد، ولكنهم صبروا على ما أصابهم وشددوا الحصار على الروم فطلبوا الصلح من أبى عبيدة على مثل ما صالح عليه أهل دمشق فأجابهم إلى ذلك، كما صالح فى طريقه أهل بعلبك - مدينة قديمة بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخا من جهة الساحل - ثم صالح أهل حماة وبعث بالخمس إلى عمرو وبشره بالفتح.

فتح قنسرين:

بعد فتح حمص أرسل أبو عبيدة خالدا لفتح قنسرين فلما وصل قرب حلب إلى مكان اسمه الحاضر قابلته جموع من الروم والعرب بقيادة ميناس وهو رأس الروم وأعظمهم بعد هرقل فهزمهم المسلمون بعد معركة حامية قتل فيها عدد عظيم من الروم وقتل ميناس.

وأما أهل الحاضر فقد أرسلوا إلى خالد يعتذرون إليه قائلين: إنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه: فقبل منهم وتركهم، وسار إلى قنسرين فتحصن أهلها وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم فلم تغن عنهم مع خالد شيئا، فقد قال لهم فى قوة إيمان وثقة بالله: لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا: فنظروا فى أمرهم ورأوا ما لقى أهل حمص فطلبوا من خالد الصلح على مثل صلح حمص فأبى إلا على خراب

المدينة وكان ما أراد فأخربها، ولما بلغ عمر صنيع خالد قال: أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى: وقال فيه وفى المثنى بن حارثة[1]: إنى لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما.

وبعد أن فتحت قنسرين سار خالد إلى مرعش - مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم - ففتحها وأجلى أهلها وأخربها[2]، وكان ذلك سنة خمس عشرة، وعند ذلك رأى عمر بن الخطاب أن يعينه واليا على قنسرين تحت إمرة أبى عبيدة فعينه واستمر واليا عليها حتى السنة السابعة عشرة من الهجرة، حيث عزل، وترك السيف والجهاد ومات سنة ٢٣هـ بحمص على فراشه، فوداعا يا سيف الله رحمك الله وأسكنك فراديس جنانه.

فتح قيسارية[3]:

وفى سنة خمس عشرة أرسل يزيد أخاه معاوية إلى قيسارية بأمر الخليفة فاستمات أهلها فى الدفاع عنها حتى قتل منهم مائة ألف، ولكنه فتحها بعد جهاد طويل قدره بعض المؤرخين بسبع سنين[4].

اليرموك الثانية أو اليرموك الكبرى:

وبعد استيلاء المسلمين على هذه البلاد لم يسع الدولة الرومانية إلا أن تجند جيشا كثيفا لتواجه به هذا العدو الذى اقتطع جزءا كبيرا من أراضيها فجمعت جيشا من روم وأرمن وعرب وشوام يزيد على المائتى ألف، وعهد هرقل بالقيادة العامة لهذا الجيش لتيودور ساكلاريوس، وكان قائد الفرقة العربية جبلة بن الأيهم وقائد الأرمن بعناس.

ولما كانت وجهة هذا الجيش جنوب الشام فقد خافت الحاميات الإسلامية فى حمص وبعلبك ودمشق أن يفصل بينها وبين بقية الفرق الإسلامية المرابطة فى فلسطين، فتراجعت بسرعة حتى وصلت ضفاف نهر اليرموك المعروف الآن باسم شريعة المنذرة، وعسكرت

---

(١) وكان قد عزل المثنى فى أول خلافته، ولكنه رجع عن رأيه لما قام بأمر الجيش بعد أبى عبيدة الثقفى ورجع عن رأيه فى خالد بعد قنسرين.

(٢) يروى أن هرقل حينما سمع بما حدث بقنسرين خرج من الشام، وسار إلى القسطنطينية، وقال عبارته المشهورة فى وداع سوريا، ولكننا لا نرى ذلك لرواية الثقاة مثل البلاذرى فى أنه ودعها بعد اليرموك الثانية.

(٣) بلد على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، ويقول ياقوت إنه كان بها من جنود الروم المرتزقة مائة ألف وبها من اليهود مثل هذا العدد وكان فتحها سنة ١٥ وقيل سنة ١٦هـ.

(٤) راجع فيما سبق من المواقع ابن الأثير وخلفاء محمد جـ ١ ص ١٣٠ والصديق ص ٢٧٩.

هناك فى انتظار الجيش البيزنطى الذى وصل فعلا إلى أراضى حوض اليرموك فى جمادى الثانيه من السنة الخامسة عشرة للهجرة – يوليو سنة ٦٣٦م.

وعلى ضفاف اليرموك دارت المعركة بين الجيشين فى أول يوم تواجها فيه، ثم وقف القتال شهرا دب الخلاف فى أثنائه بين عناصر الجيش الرومى المتناقضة المفككة العرى وأدى ذلك الخلاف إلى مفاوضة بعض القواد للمسلمين فى الانضمام إليهم، وفى رجب اشتبك الجيشان (الإسلامى والرومانى) للمرة الثانية فدارت الدائرة على الجيش الرومانى وقتل زهاء سبعين ألفا، ووقع القائد تيودور قتيلا[1] وهرب القائد بعناس الأرمنى إلى دير طور سيناء وانزوى فيه وترهبن[2] وانحاز جبلة بن الأيهم إلى الأنصار فقال: أنتم إخواننا وبنوا أبينا، وظهر الإسلام.

نتائج اليرموك:

١ – لما بلغ هرقل ما حدث للروم فى اليرموك خرج من أنطاكية وسار حتى وصل إلى نشز من الأرض وصاح بلسانه يودع الشام إلى الأبد، ورحل عنها إلى القسطنطينية.

٢ – بعد هذه الموقعة أصبح الشام كله فى قبضة المسلمين، وتقدم أبو عبيدة فاسترجع البلاد التى كان قد تراجع عنها.

٣ – يقولون إن الحروب الصليبية بدأت يوم أن انتصر المسلمون فى موقعة اليرموك سنة ٦٣٦م، فقد سلمت دمشق المنوفيستية للمسلمين، وكذلك فعلت حمص وكانت منوفيستية أيضا، وحدثت موقعة اليرموك وانتصر المسلمون، وترك حامى المسيحية الشرق والشام وسار إلى بيزنطة، فألهب هذا شعور المسيحيين من هذا اليوم وبدأت الحروب الصليبية التى كان من أدوارها الحروب التى حدثت فى عهد الدولة الأيوبية والمماليك بالشام ومصر ولكن هل انتهت بانتصارات الأيوبين والمماليك؟ يروى أن اللورد آلنبى وقف سنة ١٩١٨م بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، واحتلال انجلترا وفرنسا لمصر وفلسطين والعراق وسوريا ولبنان وقف وقال: اليوم انتهت الحروب الصليبية: وفى رأينا أنها لم تنته بعد وأن الصراع بين الشرق والغرب ما زال محتدا، وإن كان قد اتخذ لونا آخر.

(١) يروى أنه لم يقتل وأنه هرب إلى مصر.

(٢) الطبرى ج٤ ص٢٩، وابن الأثير ج٢ ص ٢٨١ – ٢٨٦ وزيادة ص ٥٦ – ٥٨.

أجنادين الثانية:

ذكرنا فيما سبق أنه لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص نزل شرحبيل وعمرو على بيسان فافتتحاها وصالحا أهل الأردن، ونذكر هنا أنه اجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين فسار عمرو وشرحبيل إلى الأرطبون ومن معه من الروم، وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدهم غورا وأنكاهم فعلا، وكان قد وضع أيضا جندا بالرملة وإيلياء، ورأى عمرو أن قوة الروم أقوى من قوته فكتب إلى عمر بن الخطاب بالخبر فقال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج، ولكنه أراد أن يشغل الروم عن عمرو فكتب إلى القواد أن يسيروا لشغل الروم فى قيسارية والرملة وإيلياء، فتم ذلك وأصبح أهل أجنادين لا مدد لهم، وأقام عمرو على أجنادين مدة طويلة لا يقدر منها على شىء، ثم اشتبك الجيشان ودارت معركة حامية الوطيس كان القتال فيها يشبه قتال اليرموك، انتهت بهزيمة جيش الأرطبون الذى يبلغ عدده ثمانين ألفا، وقتل منه خلق كثير، ونزل عمرو أجنادين سنة ١٥هـ.

وكانت نتيجة انتصار عمرو فى هذه الموقعة أن خضعت بلاد كثيرة لسلطان المسلمين بلا قتال ومنها غزة ويافا وعكا ونابلس وعسقلان والرملة ولم يبق إلا بيت المقدس.

فتح بيت المقدس:

كان عمرو بن العاص قائد الجيش الذى ذهب لفتح فلسطين كما قدمنا، وكانت إيلياء عاصمة هذا الإقليم، وهى المدينة المقدسة فى نظر المسيحيين، وبعد أن فتح بلاد فلسطين لم يبق إلا بيت المقدس، وقد دفعه إلى فتحه عاملان: عامل دينى، وعامل سياسى.

١ – العامل الدينى، مكانتها فى نظر المسلمين، إذ مسجدها يعتبر ثالث المساجد، وكان أولى القبلتين وإلى هذا المسجد الأقصى كان الإسراء ومنه كان المعراج، فالاستيلاء على هذه المدينة من الأهمية بمكان فى نظر جميع المسلمين.

٢ – العامل السياسى، القضاء على ما بقى للدولة الرومانية من آمال فى بلاد فلسطين والشام وتوطيد قدم المسلمين فى هذه البلاد حتى يتفرغوا لفتح مصر بعدها.

الحصار:

ألقى عمرو عليها الحصار بعد أن هرب الأرطبون قائد حاميتها إلى مصر وطال أمد الحصار وتحمل المسلمون فى حصارها كثيرا من آلام البرد القارس وصبروا على المجانيق التى نصبها

لهم الروم على أسوار المدينة فأنزلت بهم خسائر فادحة، واستمروا كذلك أربعة أشهر فيما يقال، وضاق الروم ذرعا بهذا الحصار وأعيتهم الحيل، وانقطع عنهم المدد، فلم يكن لهم بد من التسليم فجنحوا للسلم ورغبوا فى الصلح على شرط أن يكون المتولى لعقده عمر بن الخطاب لما سمعوه عنه من عدل وتسامح فكتب عمرو إليه بذلك، فرضى بالشرط وخرج من المدينة بعد أن بعث إلى القواد أن يقابلوه بالجابية، فكان سفره أول رحلة قام بها خليفة المسلمين خارج بلاد العرب وسار حتى وصل الجابية وكان أول من قابله يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد ولما رآهم عمر وعليهم الديباج والحرير عنفهم ورماهم بالحجارة وقال، إياى تستقبلون بهذا الزى: ؟؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامقة (أقبية) وإن علينا السلاح: قال: فنعم إذن وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل كأنهما لم يتحركا من مكانهما.

وفى الجابية وافاه أهل إيلياء وخيارها يطلبون الصلح فصالحهم وكتب لهم كتابا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وكان مما كتبه: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود: وقد أشهد على هذا الكتاب خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص، وكانت المعاهدة فى سنة ١٥هـ[1].

وبعد أن أعطاهم عمر الأمان سار إلى بيت المقدس حتى دخل كنيسة القيامة وحضره وقت الصلاة فيها فقال للبطريك: أريد الصلاة: فقال له: صل موضعك: فامتنع عمر وخرج فصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا فلما قضى صلاته قال للبطريك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر: ثم قال أرنى موضعا أبنى فيه مسجدا: فقال له: على الصخرة: أى صخرة بيت المقدس فذهب إليها فوجد عليها ترابا كثيرا فشرع فى إزالته فتناوله بيده يرفعه فى ثوبه واقتدى به المسلمون جميعا فحملوه فى ثيابهم، ثم أمر ببناء المسجد بجانب هذه الصخرة، ولم يقم عمر إلا بمقدار الصلح ووضع أساس المسجد، وتقسيم فلسطين إلى ولايتين، إحداهما قصبتها الرملة والأخرى بيت المقدس، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ١٥ هـ.

وبفتح بيت المقدس، تم للمسلمين فتح الشام كلها من أنطاكية فى أقصى الشمال إلى حدود مصر ولم ينتشر المسلمون بالشام انتشارهم بالعراق، ولم يؤسسوا مدنا فيها كالكوفة

(١) راجع المعاهدة فى الخضرى بك ج٢ ص ٨ ، ٩، والطبرى ج٤ ص ١٦٠.

والبصرة مثلا بل بقوا فيها حكاما واستوطنوا المدن الكبرى كحمص ودمشق، ولم يختلط أهل الشام بهم كاختلاط الفرس، ولم يؤد فتح الشام إلى إنتاج عنصر جديد مثل عنصر الموالى، بل بقى الشوام على دينهم وعاداتهم.

فتح الجزيرة وأرمينية:

فى السنة السابعة عشرة للهجرة شرعت الدولة الرومانية فى مشروع، الغرض منه إخراج المسلمين من الشام أو على الأقل من جهاتها الشمالية، وكان الباعث على هذا المشروع استنجاد القبائل المسيحية الساكنة أعالى العراق - أى منطقة الحدود بين فارس والروم - بكل من الفرس والروم.

ولما كانت القوة البحرية البيزنطية لا تزال على قوتها لم يصبها المسلمون بهزيمة فقد عزم هرقل على استخدامها فى إغاثة مسيحى أعالى العراق برد المسلمين عن شمال الشام، وسير حملة من الإسكندرية لمهاجمة أنطاكية بحرا، وجهز قبائل البدو لمهاجمة حمص، وفوجئ أبو عبيدة بكل هذا فضم إليه مسالحه وعسكر بفناء حمص، واستشار أصحابه فى المناجزة أو التحصين إلى أن يأتيه المدد فأشار خالد بن الوليد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين فأطاعهم وكتب إلى عمر بذلك، فأرسل الخليفة إلى سعد بن أبى وقاص يطلب منه إرسال نجدة من الكوفة بقيادة القعقاع ليزيل الخطر عن حمص كما طلب منه أن ينفذ حملة أخرى إلى شمال العراق لتجذب إليها قوات البيزنطيين فيخف بذلك الضغط عن شمال الشام.

وبينما تلك النجدات تنفذ أمر الخليفة كانت الحملة البحرية البيزنطية قد نزلت من السفن قرب أنطاكية ثم هاجمت المدينة ففتح سكانها الأبواب للبيزنطيين ووصلت أخبار ذلك إلى حلب وقنسرين وغيرهما من المدن القريبة، فانفجرت فيها كلها ثورة ضد المسلمين.

فرأى أبو عبيدة أن يعتصم بحمص حتى تأتيه النجدة من الكوفة، غير أنه حدث ما لم يكن فى الحسبان إذ تخاذلت قبائل البدو التى وجهها هرقل ضد حمص، ورجعت إلى أماكنها، واهتبل أبو عبيدة الفرصة فخرج من حمص، وهزم الجموع البيزنطية قبل أن تصل النجدات العراقية التى كانت فى طريقها إليه، وقدم القعقاع بعد ذلك بثلاث فكتبوا إلى الخليفة بالفتح ووصول المدد فكتب إليهم: أن أشركوهم فإنهم نفروا إليكم.

فتح مصر وليبيا

وكان فتح مصر بعد الشام ضرورة، فقد أدرك قادة المسلمون بالشام أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على الفتوحات فى الشام فحسب بل إنها ذات مركز استراتيجى يهيئ موقعه الجغرافى للبيزنطيين القيام بحملة انتقامية على بلاد العرب نفسها أى على المدينة المنورة حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم.

وعلى هذا النحو كان فى الاستيلاء على مصر حرمان الأسطول البيزنطى من أية قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء مياه البحر المتوسط الشرقى قرب سواحل الشام، أو فى مياه البحر الأحمر قرب الحجاز.

لذلك انتهز عمرو بن العاص فرصة المؤتمر الحربى الذى عقده عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الجابية (وهى مرتفعات الجولان الحالية) فى ١٨هـ/ ٦٣٩م أثناء حضور عمر بن الخطاب إلى الشام ليستلم بيت المقدس من بطريركها "صفرونيوس".

أحوال مصر عند الفتح الإسلامى:

كانت أحوال مصر فى العصر البيزنطى قد بلغت حدا لا مزيد عليه من السوء، ذلك أن الحالة الاقتصادية ساءت بسبب قسوة عبء الضرائب من ناحية والتمادى فى نظام الوظائف غير المأجورة من ناحية أخرى، وقد أدى ذلك إلى فرار كثير من صغار الزراع من أراضيهم حتى كادت تختفى فى القرن السادس للميلاد طبقة صغار الملاك الزراعيين.

هذا إلى أن تناقص صغار الملاك الزراعيين ترتب عليه استيلاء كبار الملاك على أراضيهم الأمر الذى أدى إلى خلل كبير فى ميزان القوى الاجتماعية، فضلا عن عجز الحكومة عن مواجهة نفوذ كبار الملاك الزراعيين.

وزاد من متاعب المصريين أن الرومان اعتبروهم دائما الطبقة السفلى فى المجتمع التى تأتى بعد الرومان واليونان وحتى اليهود، ففرضوا عليهم أشد الالتزامات قسوة، وفى الوقت نفسه حرموهم من أبسط الحقوق الاجتماعية، ومع ذلك فقد ظل المصريون متمسكين بقدر كبير من عاداتهم ونظمهم وثقافتهم القديمة، وربما أدى إحساسهم بسوء وضعهم إلى تماسكهم وترابطهم، فضلا عن تمسكهم وحرصهم على تراثهم وأصولهم الفكرية والاجتماعية.

وكان أن وجد المصريون فى المسيحية محورا روحيا كبيرا يلتفون حوله لتوقظ فيهم شعورهم القومى، وتبرز شخصيتهم وترفع روحهم المعنوية، فعبروا عن حماستهم الدينية التى اشتهروا بها منذ أقدم العصور تعبيرا صادقا فى ظل المسيحية، وأقبلوا على هذه الديانة الجديدة إقبالا يتفق مع وصف هيرودوت لهم بأنهم قوم يخافون الله، ولم يبالوا بالاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له من جانب الأباطرة الوثنيين وهو الاضطهاد الذى بلغ ذروته فى عصر الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) ولكن المصريين تحملوا ذلك الاضطهاد بنفس الشجاعة التى يواجه بها كل مؤمن جبروت الطغاة، فأطلقوا على الفترة الأخيرة من حكم دقلديانوس اسم عصر الشهداء، واختاروا سنة ولايته الحكم – وهى سنة ٢٨٤م – بداية التقويم القبطى، إشارة لما عاناه الأقباط منذ تلك السنة المشئومة من أذى وجور، وتحت نير الاضطهاد الدينى من ناحية، وفى ظل المقاومة بين مثل المسيحية ومبادئها الكريمة وبين ما كان بالمجتمع الرومانى من فساد من ناحية أخرى، اختار كثير من الأقباط الفرار إلى الصحراء وأماكن العزلة النائية، لينقطعوا لعبادة الرب بعيدين عن فساد المجتمع الحضرى، فضلا عن تجنب قسوة الحكام وغلظتهم، وهكذا كانت مصر أول بلد فى العالم شهد مولد حياة الرهبانية الديرية، وأسهموا بهذه الحياة الجديدة إسهاما خطيرا فى تاريخ المسيحية وحضارتها.

ولم تهدأ موجة الاضطهاد ضد المسيحيين عموما وأقباط مصر بوجه خاص إلا عندما اعترف الإمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية سنة ٣١٣م، وأصدر فى تلك السنة مرسوم "ميلان الشهير" الذى أطلق حرية العقيدة للمسيحيين، ولكن حتى مع انتشار المسيحية فى العالم الرومانى، ثم اعتبارها الديانة الرسمية للإمبراطورية منذ عهد الإمبراطور "ثيودسيوس الكبير" فى أواخر القرن الرابع، فإن أباطرة القسطنطينية اختاروا ألا يتركوا أقباط مصر يتمتعون بحرية العقيدة وحق التعبير عن رأيهم فى تفسير الآراء المتعلقة بالمسيحية.

ذلك أنه حدث حوالى منتصف القرن الخامس للميلاد أن اشتد الخلاف فى المعسكر المسيحى حول تفسير طبيعة السيد المسيح، فقال البعض بأن للمسيح طبيعة واحدة، وهذا هو المذهب المنوفيزيقى، فى حين قال فريق آخر بأن للمسيح طبيعتان إحداهما إلهيا والأخرى بشرية، وهذا هو المذهب الملكانى.

وكان أن أجمع المصريون على اعتناق مذهب الطبيعة الواحدة، فى الوقت الذى قرر

مجمع خلقدونية الدينى سنة ٤٥١م – الذى عقد تحت إشراف السلطة الإمبراطورية – الأخذ بمذهب الطبيعتين، وقد اتخذ تمسك المصريين بالمذهب المونوفيزيتى طابعا قوميا، الأمر الذى عرضهم لموجة اضطهاد عنيفة من جانب الأباطرة البيزنطيين، وهكذا شهدت مصر فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد ثورات عنيفة، مما ضاعف من سوء الأحوال الاقتصادية فى البلاد، وبلغ من قسوة الاضطهادات التى تعرض لها أقباط مصر فى ذلك الدور أن كان يلقى بهم أحيانا فى مواقد الحمامات العامة لتكون لحومهم وعظامهم وقودا لنيرانها وكان أن استغل كسرى الثانى فرصة اضطراب الإمبراطورية البيزنطية، فغزا الفرس أراضيها سنة ٦١٦م واستولوا على مصر ومدنها من الإسكندرية شمالا حتى أسوان جنوبا، وعلى الرغم مما قاساه المصريون من قسوة الروم فإنهم لم يرحبوا بالفرس، ولم يروا فيهم المخلص الكفيل برفع الظلم عن كواهلهم، ولعل الغزو الفارسى لمصر وما تعرضت له البلاد والعباد على أيديهم من خراب وعذاب كان مما زاد أوضاع مصر عندئذ سوءا على سوء حتى انتهى الأمر بأن نجح الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٩ هـ فى طرد الفرس من آسيا الصغرى والشام ومصر جميعا.

على أنه إذا كان هرقل قد نجح فى طرد الفرس من مصر، فإنه لم ينجح فى إيجاد حل للمشكلة الكبرى التى اعترضت سبيل العلاقة بين مصر والقسطنطينية، وهى المشكلة التى كان سببها إصرار الكنيسة المصرية على التمسك بالمذهب المونوفيزيتى حتى اتخذ المصريون لأنفسهم لقب الأرذثوكس – بمعنى أصحاب العقيدة الصحيحة – فى الوقت الذى اختارت كنيسة القسطنطينية مذهب الطبيعتين وحرصت عليه، وكان أن وضع هرقل صيغة للتوفيق بين قرارات مجمع خلقدونية والمذهب المونوفيزيتي، دون أن يحسب حسابا لعناد المصريين، وما قد يترتب على رفضهم صيغة التوفيق التى وضعها الإمبراطور هرقل من مشاكل تهدد بقطع الخيط الواهى الذى يربط مصر بالقسطنطينية، وأدى عناد الإمبراطور هرقل به إلى أنه أرسل إلى مصر سنة ٦٣١م حاكما يجمع فى قبضته بين الزعامتين الدينية والسياسية، بمعنى أن يكون حاكما إداريا على مصر من قبل الإمبراطور، وفى نفس الوقت بطريركا ورئيسا لكنيستها.

أما هذا الرجل فكان قيرس Cyrus– الذى عرفه كتاب العرب باسم المقوقس – وقد اشتهر بالصلابة والبعد عن المرونة والميل إلى العنف، الأمر الذى ضاعف من سوء الأوضاع

فى مصر على عهده، ويبدو أن المصريين أحسوا بما ينتظرهم من اضطهاد على يد الحاكم البيزنطى الجديد، فلاذ بطريرك الأقباط "بنيامين" بالفرار من الإسكندرية قبل وصول المقوقس إليها، واتجه البطريرك إلى وادى النطرون ومنه إلى طيبة بالصعيد.

ولم يخطئ المصريون فى ظنهم، إذ تطرف قيرس – أو المقوقس – فى اضطهاده لحملهم على التخلى عن مذهب الطبيعة الواحدة، وبلغ به الأمر أن قبض على الأب مينا – شقيق البطريرك بنيامين – وأمر بنزع أسنانه وكى جسمه بالنار ليجبره على التخلى عن مذهبه المونوفيزيتى، ولما ازداد الرجل إصرارا على التمسك بعقيدته وضعه فى جوال ملئ بالتراب وألقى فى البحر.

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاضطهاد أن ازداد المصريون كرها للحكم البيزنطى، واشتد عداؤهم له ورغبتهم فى التخلص منه.

وهكذا دارت الأحداث فى مصر فى الوقت الذى أخذ عمرو بن العاص يشق طريقه عبر الصحراء الشرقية فى طريقه إلى الدلتا.

أحداث الفتح:

وعلى الرغم مما يحيط بأخبار فتح المسلمين لمصر من اضطراب وتناقض بين المصادر التاريخية فضلا عن نقص فى بعض التفصيلات المرتبطة بأحداث الفتح، إلا أن الخطوط العريضة لتلك العملية الخطيرة فى التاريخ يسهل رسمها فى ضوء المقاربة بين ما ذكره المؤرخون العرب مثل: ابن عبد الحكم، والبلاذرى، وغيرهما من ناحية، وما ورد فى بعض المصادر اليونانية على قلتها – مثل تاريخ حنا النقيوسى من ناحية أخرى.

وقبل أن نتكلم بإيجاز عن أحداث الفتح الإسلامى يصح أن نضع أمام أبصارنا الحقيقة الكبرى التى تبدو فى صورة مباشرة أو غير مباشرة بين سطور المصادر السابقة، وهى أن المصريين أنفسهم – أعنى الأقباط من أهل مصر – وقفوا موقفا سلبيا من جهود الامبراطورية البيزنطية فى الدفاع عن مصر ضد الفتح الإسلامى فلم يتحمس المصريون للمشاركة فى تلك الجهود، ولم يروا فى المسلمين خطرا يهددهم، بل إن حنا النقيوسى –وهو مسيحى مصرى مونوفيزيتى – يشير فى أكثر من موضع إلى أن أقباط مصر كانوا يهاجمون جند الروم ويجردونهم من أسلحتهم ثم يسلمونهم لخصومهم المسلمين، وهكذا عبر المصريون عن مقتهم للحكم البيزنطى، ووجدوا فى الفتح الإسلامى فرصة للتنفيس عما أحسوا به من ألم ومرارة

بعد زمن طويل من الاضطهاد الدينى، ذاق فيه أقباط مصر جرعة مريرة تركت أثرا عميقا فى تاريخ الكنيسة المصرية، وقد اعترف حنا النقيوسى فى صراحة بأن انتصار المسلمين إنما جاء نتيجة لما حل بأقباط مصر من عسف واضطهاد على عهد الإمبراطور هرقل، ونائبه فى حكم مصر وهو البطريرك قيرس (المقوقس)!!

كما أنه يجب ألا يفوتنا أن نقول إن الشام فتحت قبل مصر وعلم الأقباط حرية العقيدة التى أتاحها المسلمون لنصارى الشام، والأهم من ذلك كله هو اعتراف الإسلام بالسيد المسيح، وأن اختلافهم مع الأقباط فى طبيعة السيد المسيح لا يختلف كثيرا عن اختلاف المسيحيين فيما بينهم فى هذا الموضوع.

سار عمرو بن العاص سنة ٦٣٩م (١٨هـ) من قيسارية على شاطئ فلسطين متجها إلى العريش حيث احتفل مع جنده بعيد الأضحى، ومن العريش قصد الفرما ومنها إلى بلبيس فأم دنين شمالى حصن بابليون حيث كان البيزنطيون قد تحصنوا وحشدوا قواهم بها، ويبدو أن عمرو بن العاص أحس عندئذ بقدر من المقاومة لم يعهده منذ دخوله أرض مصر، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب مستنجدا، وعندئذ أمده الخليفة بأربعة آلاف مقاتل "فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل".

وكان أن أحس "تيودور" القائد العام للجيوش البيزنطية فى مصر بأن الخطر الذى يواجهه ليس مجرد غارة من تلك الإغارات التى اعتادت البلاد أن تتعرض لها بين حين وآخر، فحشد قواه وضاعف جهوده للدفاع عن حصن بابليون، الأمر الذى جعل العرب يقضون بضعة أشهر فى حصاره.

وعندما طال القتال حاول المقوقس الوصول إلى حل مع المسلمين، فدارت مفاوضات بين الطرفين، لجأ الروم فيها إلى الجمع بين أسلوب التهديد والترغيب، فقالوا للمسلمين: "قد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم، ونحن نطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به"، ولكن عمرو بن العاص ترك للروم اختيار حل من ثلاثة – لا رابع لها – إما الدخول فى الإسلام، وإما الجزية، وإما القتال.

وفى خلال المفاوضات التى دارت بين المقوقس والمسلمين، أدرك المقوقس إصرار العرب

على تحقيق غرضهم وعدم استعدادهم للمساومة، فاضطر إلى الاستسلام، ووافق على مبدأ دفع الجزية، وبذلك تسلم المسلمون حصن بابليون وأشرفوا من ذلك الموقع الحربى الفريد على مربط الوجهين البحرى والقبلى، ثم إن المقوقس اشترط شرطين: أولهما: أن تترك حرية الاختيار للروم فى مصر بين قبول شروط الصلح أو الخروج من أرض مصر.

ثانيهما: أن تبقى الكلمة الأخيرة فى الصلح للإمبراطور هرقل، فإن رفضه كانوا جميعا إلى ما كانوا عليه، أى عادوا إلى القتال، ويفهم من هذا كله أن قبط مصر قد أصبح أمرهم مفروغا منه بمقتضى الصلح السابق، وأنه إذا كانت هناك مساومات بين الطرفين المتنازعين، فإن هذه المساومات كانت تدور فقط حول مصير الروم أو الجالية البيزنطية الموجودة فى مصر.

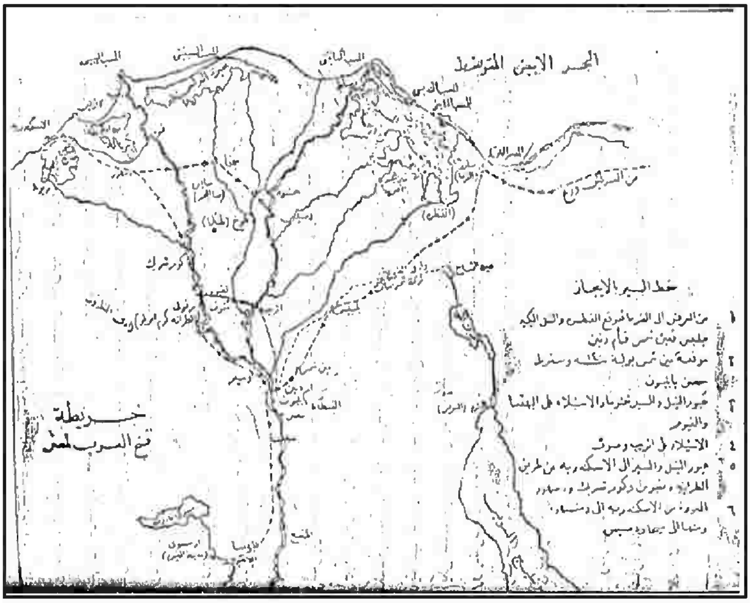

وكان على عمرو بن العاص بعد ذلك أن يسيطر على الإسكندرية، كبرى مدن البلاد وعاصمة مصر منذ أيام البطالمة، والمركز الأول للنشاط السياسى والاقتصادى والثقافى فى مصر طوال عصرى البطالمة والرومان.

وفى تلك الأثناء كان هرقل قد رد على المقوقس فى مصر يؤنبه، ويقول له إنك «رضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء، فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم» ولكن المقوقس لم يعبأ بهرقل، وأخبر عمرو بن العاص بأن القبط موفون له ما صالحهم عليه، وعندئذ طلب عمرو من المقوقس أن يضمن له الجسور، ويقيم له الإنزال والضيافة فى طريقه إلى الإسكندرية، فتعهد المقوقس بذلك، وبذلك «صارت لهم القبط أعوانا كما جاء فى الحديث».

على أن الموقف اختلف بالنسبة للإسكندرية عنه بالنسبة لحصن بابليون، ذلك أن الإسكندرية مدينة بحرية قبل كل شىء يحتاج حصارها إلى أسطول يحيط بها من ناحية البحر، فى الوقت الذى كان للمسلمين فى ذلك الدور يجهلون شئون البحر بل يخافون ركوبه، هذا إلى أن وضع الإسكندرية على شاطئ البحر كان يجعلها سهلة الاتصال بالقسطنطينية مما يجعل فى الإمكان إمدادها بالرجال والعتاد والمؤن لتستطيع الصمود فى عناد، وقد أدرك الروم أن الإسكندرية – وليس حصن بابليون – هى مفتاح مصر الحقيقى، فحشدوا فيها قواهم، بل لقد استعد الإمبراطور هرقل للخروج بنفسه إلى الإسكندرية للدفاع عنها، لولا أن دهمه الموت فى أوائل سنة ٦٤١م (٢٠هـ).

وهكذا طال حصار المسلمين للإسكندرية واشتدت مقاومة البيزنطيين داخلها، حتى لقد انتاب القلق الخليفة عمر بن الخطاب، فأرسل إلى عمرو بن العاص يلومه ويستحثه.

وأخيرا – وبعد حوادث مليئة بالتفصيلات – أدرك المقوقس مرة أخرى تعذر الاستمرار فى المقاومة، فتم إبرام معاهدة الإسكندرية فى نوفمبر سنة ٦٤١م (٢١هـ)، وأهم شروطها أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين سنويا، وأن تعقد هدنة بين الطرفين لمدة أحد عشر شهرا تجلو خلالها الحامية البيزنطية ومعها أموالها وعتادها عن المدينة، بشرط ألا يحاول الروم العودة إلى المدينة مرة أخرى، أما العرب فقد تعهدوا من جانبهم بعدم التدخل فى شئون المسيحيين وعدم الاستيلاء على كنائسهم فضلا عن السماح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية.

وجدير بالذكر أن عمرو بن العاص لم يغفل أمر داخلية البلاد أثناء انشغاله بحصار بابليون والإسكندرية، ففى أثناء حصار بابليون – وقبل وصول الإمدادات التى طلبها عمرو ابن العاص من الخليفة – غزا عمرو بن العاص إقليم الفيوم فى صيف سنة ٦٤٠م (١٩هـ) وقبل أن يستسلم حصن بابليون نفسه، قام المسلمون بغزو إقليم وسط الدلتا حتى منوف الحالية.

وعندما طال حصار الإسكندرية، شغل عمرو بن العاص نفسه بغزو أقاليم دمنهور وسخا كما أوغل فى وسط الدلتا.

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية لم ترض عن ضياع مصر، وقامت بأكثر من محاولة لاستردادها من الفاتحين المسلمين، فإن هذه المحاولات باءت جميعها بالفشل.

فتح برقة وطرابلس (ليبيا):

وكان من الطبيعى أن يتوجه عمرو بن العاص إلى فتح برقة وطرابلس بعد فتح مصر حيث إنهما كانتا رسميا تابعتين لمصر، فكان عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه حتى قدم برقة، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية، ثم سار عمرو بن العاص بعد ذلك حتى نزل طرابلس سنة اثنين وعشرين من الهجرة، فوجد سفن جند الروم راسية على الشاطئ، فأسرع بمهاجمة المدينة التى لم يكن لها أسوار تحميها فلم تفلت الروم إلا بما خلف لهم من سفنهم، ونستنتج من وجود سفن الروم على شاطئ طرابلس، إصرار الروم على العدوان وأنهم كانوا يعدون العدة لذلك لولا يقظة عمرو بن العاص.

ومن ثم كانت هناك مقدمات لذلك الفتح تمثلت فى غارات قصيرة – فيما يشبه السرايا – على الواحات وسكان الصحراء ثم العودة سريعا إلى مصر وكأنها جس نبض لقوى الروم التى بدأت تنهار.

وكان عمرو بن العاص يراقب ما يحدث فى برقة وطرابلس من صراعات وانشقاقات، وينتظر تلك اللحظات التى يصل فيها إلى تلك المناطق، وشجعه على ذلك العلاقات القديمة بين أهل مصر وقبائل كثيرة فيهما علاوة على أن الطرق بينهما مطروقة ومأمونة.

كانت الصحراء الممتدة من مصر إلى برقة تسكنها قبيلة (لواته) وهى قبيلة لها ماض عريق فى العصر البيزنطى وهى من أكبر القبائل شأنا وأشدها بأسا، وكان لها الغلبة على ما جاورها من القبائل البربرية فى برقة وطرابلس.

أرسل عمرو بن العاص بعضا من جنده إلى برقة بقيادة عقبة بن نافع ليستطلعوا أحوالها ويوافوه بأخبارها حتى يكون على بينة من أمره ولا يقدم على مغامرة قد تكون غير مأمونة العواقب.

عاد عقبة بن نافع، وأطلع عمرو بن العاص على أحوالها بعد الحملة الاستطلاعية واطمأن عمرو إلى تقرير عقبة، فتوجه بنفسه إليها وتم فتحها، وصالح أهلها على جزية يؤدونها وهى دينار عن كل حالم وضمن عمرو بهذا الصلح كسب أهلها إلى جانب المسلمين كما دخل بعضهم فى الإسلام.

وهناك بعض الروايات تشير إلى أن بربر برقة قد أرسلوا رسلا منهم إلى عمرو بن العاص قبل انتهائه من فتح مصر يعرضون عليه الدخول فى الإسلام.

ولا شك أن هؤلاء البربر قد رحبوا بعمرو حين توجه إليهم وتلقوه بالطاعة حتى قيل إنهم كانوا يبعثون بخراج أرضهم إلى مصر من غير أن يأتيهم من يجبى الخراج.

ويغلب على الظن أن البربر قد تأكدوا منذ الوهلة الأولى من قوة المسلمين خلال تلك الحملات الاستطلاعية التى أرسلها عمرو بن العاص أثناء حصار الإسكندرية أو التى أرسلها بعد ذلك فى حملة عقبة بن نافع التى سبقت الإشارة إليها فأسرعوا بإظهار الطاعة وإعلان الولاء.

وبعد أن انتهى عمرو بن العاص من برقة بدأ يستعد لفتح طرابلس وما يجاورها من المدن الساحلية، وأرسل فرقة من جنده نحو الداخل لإخضاع الولايات الداخلية لتجنب هجمات البربر الذين عرف عنهم شدة مقاومتهم للروم فيما دار بينهما من صراعات.

ولما كان انتزاع الساحل من أيدى الروم لا يعنى خضوع الولايات الداخلية والواحات التابعة لها فى حوزة المسلمين تماما، لذلك رأى عمرو ضرورة الاهتمام بإخضاع البربر فى الداخل فى نفس الوقت الذى يقوم فيه بفتح طرابلس.

وقد أسند عمرو بن العاص مهمة إخضاع الولايات والواحات الداخلية إلى عقبة بن نافع الذى تمكن بمقدرته العسكرية والسياسية أن يخضع هذه النواحى ما بين برقة وزويلة.

وفى عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م توجه عمرو بن العاص إلى طرابلس فحاصرها ما يقرب من شهر أو أكثر فامتنعت عليه لحصانة أسوارها وكثرة أسلحتها إلى أن تمكن المسلمون من دخولها والاستيلاء عليها عقب ما يشبه المغامرة حين تمكن أحد الجنود من التسلل إلى داخل المدينة

من الجهة التى تربطها بالبحر أثناء انحسار المياه عن جزء منها وتبعه المسلمون إلى أن تمكنوا من الاستيلاء على الكنيسة وفتحوا الأبواب ليدخل الجيش، ويتم إخضاع المدينة، وفر الروم فى مراكبهم.

بعد أن تم للمسلمين فتح طرابلس أسرع عمرو بن العاص بإرسال سرية من خيله إلى مدينة (صبرة) وكان أهلها يساندون طرابلس أثناء الحصار الإسلامى لها – وتولى قيادتها عبد الله بن الزبير الذى داهم المدينة على حين غفلة من أهلها حيث فوجئوا بالمسلمين وهم يدخلون عليهم فلم يجدوا أمامهم وسيلة إلا الهروب والتوجه إلى صقلية واستولى المسلمون على ما فيها.

وأسرع عمرو بن العاص بالكتابة إلى الخليفة فى المدينة المنورة قائلا له: "إن الله قد فتح علينا طرابلس، وليس بينها وبين إفريقية (تونس) إلا تسعة أيام ومدنها كثير، وأهلها فى عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل، فإن أراد أمير المؤمنين أن يغزوها يفتحها الله على يديه فعل".

فكتب إليه عمر: "إنهاليست بإفريقيا ولكنها المغرقة الغادرة لا يغزوها أحد ما بقيت".

عاد عمرو بن العاص إلى مصر تاركا عقبة بن نافع الذى اتخذ من برقة مقرا للجيش الإسلامى، وقد نجح عقبة فى كسب كثير من أهالى البلاد من قبائل: لواته، نفوسه، وغيرهما الذين دخلوا فى الإسلام.

وقد كفل المسلمون لسكان مصر الحرية الشخصية والحرية الدينية ووضعوا أنظمة مالية لاءمت بين ضرورات النظام من ناحية، وبين قدرة الناس من ناحية أخرى وأباحوا وظائف الدولة الكبرى للأقباط، كما استفاد الأقباط من الحركة التجارية، بعد أن كانت وقفا على الروم وعلى اليهود، وأبقى المسلمون الأرض بيد أصحابها، نظير دفع الخراج وهو ديناران عن كل فدان صالح للزراعة، وكان الخراج يرتفع وينخفض بالنسبة لفيضان النيل وكثرة المحاصيل أو قلتها، وقد اهتم العرب بالزراعة فأصلح عمرو مقاييس النيل، وأقام السدود وحفر الخليج المسمى بخليج أمير المؤمنين بين بابليون وتل بسطة التى كانت تتفرغ عندها القناة الذاهبة إلى السويس، فسارت السفن من مصر إلى الحجاز حاملة خيرات مصر، واهتم العرب بحفر الترع وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت حالة الفلاح، وتدرج فى الرخاء والرقى، وبنى العرب الفسطاط[1] لتكون عاصمة لهم حتى يسهل الاتصال بمركز الخلافة فى

(١) وذلك فى المكان الذى كان قد اتخذ مركزا حربيا فى الفضاء الذى يقع إلى الشمال والشرق من حصن بابليون ومكانها الآن مصر القديمة.

المدينة[1]، وبنوا فيها أهم شيء لدى المسلمين وهو الجامع المسمى بجامع عمرو أو المسجد العتيق أو مسجد الفتح[2].

هذا، ومن الخطأ الشائع أن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية والحقيقة أنها حرقت سنة ٤٨ ق.م فى الحريق الذى حدث فى الإسكندرية على أثر حرق قيصر أسطوله، وبعد هذه الحادثة بثمان سنين تجددت مكتبة أخرى فى الإسكندرية إلا أن هذه أعدمت فى القرن الرابع الميلادى، وخرب بناؤها كما خربت جامعة الإسكندرية على يد المسيحيين لما فى البناءين من التعاليم الوثنية، وقد تم إعدام تلك المكتبة الثانية عن آخرها سنة ٣٩١م، بدليل أنه لم يشر إليها كاتب أثناء القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية مع شغف كثير منهم بالإطلاع على الأسفار المختلفة، وبحثه وراءها فى كل مكان.

وعلى فرض وجود المكتبة الأولى أو الثانية عند الفتح برغم ما تقدم من الحقائق، فإنه لا يعقل أن يترك الروم تلك الكتب الثمينة فى نظرهم وأن يغفلوا عن نقلها أثناء الهدنة التى كانت مدتها طويلة وهى أحد عشر شهرا، وقد أبيح لهم أن ينقلوا ما يشاءون، ولا يعقل أيضا أن المسلمين الذين كانوا يعتقون الأسير إذا علم عشرة من الصبيان القراءة والكتابة يحاربون العلم ويحرقون الكتب.

والخلاصة: إن قصة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية تحمل فى ثناياها ما يهدمها من أساسها، وقد أنكرها وسخر منها مؤرخو المسلمين، ومؤرخو المستشرقين مثل: جبون ورينودوت، وموير، ورينان، وبتلر، وجوستاف لوبون وغيرهم.

وفى هذا القدر كفاية، لنسير مع موجة الفتح الإسلامى فى عهد الخليفة العادل "عمر ابن الخطاب" فنقول: إنه بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر أدرك أن عليه أن يؤمن حدود مصر من الغرب بفتح برقة وطرابلس فزحف فى سنة ٢١ هـ أو ٢٢هـ على خلاف بين المؤرخين بجيشه إلى برقة.

ولما وصلها لم يجد مقاومة تذكر وقبل أهلها دفع جزية سنوية مقدارها ١٣ ألف دينار يدفعونها بأنفسهم للمسلمين فى مصر من غير حاث أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة.

---

(١) ولهذا السبب وغيره لم يتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم مع أنها كانت معدة للسكنى.

(٢) من أراد معرفة ما قام به العرب بتوسع فليرجع إلى كتاب المجتمعات الإسلامية للدكتور محمود زيادة ج١ ص ٢٧ – ٤١.

قال فيها عبد الله بن عمرو بن العاص: لولا مالى بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلا أسلم ولا أعزل منها(1).

ثم تقدم إلى زويلة – من مدن إقليم فزان القديمة – جيشا بقيادة عقبة بن نافع فوصلها وفتحها سنة ٢٢هـ وبعد فتح برقة وزويلة تقدم عمرو إلى طرابلس الغرب وحاصرها نحو شهر واستولى عليها بعد أن هرب سكانها إلى سفن الروم الراسية فى البحر الأبيض ثم كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يقول له:

"إنا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين إفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل" فرد عليه عمر ينهاه ويقول: "ما هى بإفريقية ولكنها مغرقة غادرة مغدور بها" ولعله أراد أن الجيوش التى تغزوها لا مناص من التفرق فى أقسامها الطبيعية، وإنها تغدر بالغازين فى مكامنها الكثيرة وإن هؤلاء الغادرين يغدرون بالجيوش انتقاما لأنفسهم، ويؤيد ذلك أن فتح العراق وفارس والجزيرة والشام ومصر وليبيا لم يستغرق أكثر من عشر سنوات بينما استغرق فتح إفريقية من تونس إلى المحيط أكثر من ستين سنة ويروى أن الإفريقيين كانوا يؤدون إلى الروم شيئا ثم يغدرون بهم، وأيضا كان أمير الأندلس صالحهم ثم غدروا به، وكان خبرهم قد بلغ عمر بن الخطاب وأيا ما كان السبب فقد رجع عمرو إلى مصر.

وستأتى بقية الفتوح فى هذه البلاد فى عهد الخليفة الثالث "عثمان بن عفان" ثم فى عهد الدولة الأموية، فنقف الآن مؤقتا، لنذكر أن ما قدمنا أهم الأمور التى تمت فى عهد أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" وقد ساعد على تحقيقها ما كان ينعم به المجتمع الإسلامى فى ذلك العقد الزاهر من هدوء شامل ووحدة إسلامية عامة نتيجة لسياسة ذلك الخليفة العظيم الذى كان يتحلى بالذكاء والعدل والتحمس للحق ومضاء العزيمة والصفح عن الزلات.

وبينما كان ينعم الجميع بعدله إذا بيد مجرمة أثيمة تمتد إليه فى غسق الفجر فتطوى صفحة حياته فى وقت انعقدت عليه فيه آمال المسلمين.

مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

نعمت الجزيرة العربية بالأمن والاستقرار من عهد صاحب الرسالة ﷺ، وفاضت عليها الخيرات نتيجة للفتوحات التى تمت فى عهد الخليفتين أبى بكر، وعمر رضى الله عنهما،

---

(1) ابن الأثير ج٣ ص ١١، ١٣، والبلاذرى ص ٢٢٥، ٢٢٦.

وسادت العدالة وانتفع بها المخلصون للإسلام وغيرهم ممن تظاهروا بالإسلام، من شتى الأجناس والديانات من فرس، وروم ومجوس، ويهود، ونصارى.

وهؤلاء جميعا يحقدون على الإسلام لأنه حطم أديانهم وهدم عقائدهم وفتح بلادهم وإننا نلمس هذا بصفة خاصة فى اليهود، وكثير من كبار الفرس وأتباعهم القدامى من الأسرى فى بلاد المسلمين.

وقد برز حقدهم فى مناسبات كثيرة منها ما نحن بصدده، وهو مصرع عمر بن الخطاب فما كان يخطر ببال أحد أن تنتهى حياة ذلك الخليفة العادل الذى أجهل نفسه وأهله لصالح المسلمين عامة من عرب وعجم، بضربة خنجر ولكن ذلك قد كان حتى يعلم الناس أنه ليس فى إمكان إنسان أن ينال رضاء جميع الناس، وأن أعدل الحكام لا يستطيع إرضاء جميع أفراد رعيته فإن عمر إذا كان قد أرضى العرب بعدله وبره وشفقته، وأرضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب رؤساءهم، وأصحاب السلطان فيهم لأنه ثل عروشهم، وجعلهم كآحاد الناس فلا سيد، ولا مسود، ولا عظيم ولا حقير، بل الكل سواسية.

أما كيف وقعت الجريمة؟ فيروى لنا التاريخ، أن عمر بن الخطاب كان لا يسمح لمشرك بلغ الحلم بدخول المدينة، وما زال على رأيه هذا حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة، وهو على الكوفة يطلب منه الإذن بدخول غلام اسمه "فيروز أبو لؤلؤة" لأن فى يده صناعات كثيرة ينتفع بها المسلمون، فهو حداد، نجار، نقاش، فأذن له عمر بدخولها.

وبينما عمر يطوف يوما فى السوق، لقيه ذلك الغلام وشكا إليه المغيرة بن شعبة لأنه جعل عليه خراجا كثيرا – ضريبة دخل – فقال له عمر: وكم خراجك؟ فقال مائة درهم فى الشهر، وقيل كانت ضريبته درهمين فى اليوم فسأله عن صناعته فأخبره بها، فقال أرى خراجك كثيرا على ما تصنع من الأعمال، ثم قال له: قد بلغنى أنك تقول: لو أردت أن تعمل رحا تطحن بالريح لفعلت، قال الغلام: نعم، قال: فاعمل لى رحا. قال: لو عشت لأعملن لك رحا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب، ثم انصرف فقال عمر: لقد توعدنى العبد آنفا، ثم انصرف إلى منزله وفى صباح اليوم التالى لهذه المقابلة جاء كعب الأحبار – اليهودى – المسلم – إلى عمر فى منزله، وقال له: يا أمير المؤمنين أعهد أنك ميت فى ثلاث ليال، قال: وما يدريك؟ قال: أجد ذلك فى كتاب الله التوراة، قال عمر: أتجد

عمر بن الخطاب فى التوراة؟ قال اللهم لا، ولكنى أجد صفتك، وأنه قد فنى أجلك، وعمر لا يحس وجعا، ثم جاءه فى اليوم التالى، وقال: ذهب يوم وبقى يومان، ثم جاءه فى اليوم الثالث، فقال: مضى يومان، وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها، ويشاء الله أنه فى صبيحة الليلة التى حددها كعب، كان عمر يصلى الفجر بالمسلمين إذ أقبل فيروز فطعنه بخنجر ذى حدين أصابه فى وسطه ثلاث طعنات أو ست طعنات إحداهن تحت سرته، فلما وجد عمر حر السلاح سقط وهو يقول: "وكان أمر الله قدرا مقدورا" ثم أخذ هذا العلج (الرجل من كفار العجم) يطعن الناس بخنجره ذات اليمين وذات الشمال حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ممن فى المسجد، مات منهم سبعة، فأقبل عليه رجل من بنى تميم يقال له حطان فألقى كساءه عليه ثم احتضنه، فلما أحس فيروز أنه مأخوذ طعن – نحر – نفسه.

ولما سقط قال عمر: أفى الناس عبد الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم، قال: تقدم فصل بالناس، ثم حمل عمر إلى منزله، وأمر عبد الله بن عباس أن ينظر من قتله فجال ساعة ثم جاء فقال له: غلام المغيرة بن شعبة، فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة يحاجه بها عند الله – يحاجه (يخاصمه) – ثم أذن عمر للناس بالدخول عليه، فدخلوا فقال لهم: أعن ملأ منكم كان هذا؟ فقالوا معاذ الله، وكانوا محزونين لفقده كحزنهم يوم وفاة الرسول ﷺ، ويوم وفاة صاحبه أبى بكر، ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفى ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ – ٤ نوفمبر سنة ٦٤٤م، ودفن فى حجرة عائشة مع صاحبه حسبما أوصى بعد استئذان صاحبتها، وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام، وكانت سنه حين قتل ٦٣ سنة كصاحبيه.

نظرة فى مقتل عمر:

لا ينبغى أن تمضى حادثة من الحوادث الكبرى كقتل الخليفة دون أن نعرف الأسباب الحقيقية التى دفعت إلى ارتكاب جريمة كبرى، وهل هى نتيجة تدبير سابق؟ ومن دبرها؟

إن مجرد سخط أبى لؤلؤة على عمر لأنه لم ينصفه فى الفريضة – الضريبة – التى فرضها عليه سيده المغيرة لا يبعثه على ارتكاب جرم فظيع كهذا، وبخاصة إذا علمنا أنه غريب عن بلده لا جاه له فى المدينة، بل إن الذى دعاه إلى قتل الخليفة أوسع دائرة من هذا، وكل ما ظهر به من الشكوى أمام عمر مجرد انتحال سبب للقتل.

ووراء ذلك أسباب حقيقية هى الغيظ والحقد على الخليفة والمسلمين الذين دوخوا الفرس، وثلوا عروشهم وأعلوا كلمة الإسلام على سائر الأديان.

ويؤخذ مما رواه الثقاة والمحدثون فى مقتل عمر أن قتله كان نتيجة مؤامرة سياسية ووليد اتفاق جنائى، فإنه عقب الحادث تقدم عبد الرحمن بن أبى بكر - وهو رجل صالح غير متهم - فشهد أنه رأى الهرمزان وفيروز وجفينة النصرانى ليلة الحادث يتشاورون، فلما نظروه اضطربوا وسقط من بينهم خنجر ذو حدين نصابه فى وسطه فعرضوا عليه الخنجر الذى استعمل فى الحادث فقرر أنه هو الذى رآه، ومن المقطوع به أن فيروز كان خادما للهرمزان وقد كثرت الشائعات بأن الهرمزان هو الذى أعطى السلاح لفيروز، وأمره بقتل عمر لاعتقاده أن الدولة الإسلامية ستضعف بعد مصرعه بالاختلاف والانقسام، ولهذا أخذ عبيد الله بن عمر سيفه وقتل المتآمرين على الخليفة وفى نوبة الألم الشديدة قتل ابنة القاتل، ولولا اعتقال سعد بن أبى وقاص له وحبسه فى داره لقتل كعب الأحبار وغيره، فإنه كان يقول: والله لأقتلن رجالا ممن شارك فى دم أبى.

أما كعب الأحبار فإنه لو صحت الرواية عنه لكانت دليلا قاطعا على اشتراكه فى المؤامرة أو على الأقل كان عالما بها، وعنه يقول المرحوم الخضرى ج٢ ص ٣٢: لو كنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة واحدة فى أن لكعب يدا فى مقتل عمر، أو أنه على الأقل كان عالما بما تم عليه الاتفاق بين المتآمرين.

وإليكم كلمة عن واحد من الأربعة الذين ذكرناهم، لتتبينوا على ضوئها نفسية كل واحد منهم:

١- **الهرمزان:** كان ملك الأهواز - من بلاد فارس - أسره المسلمون وعفا عنه عمر بعد نكثه للعهود مرارا، ولم يزده هذا العفو إلا لؤما وتمردا لأنه كان يرى أنه أصبح فى المدينة كأحد السوقة لا قيمة له، بعد أن كان ملكا كبيرا، وكان يحز فى نفسه ما يراه كل يوم من امتداد سلطان الإسلام على بلاد فارس وما يحمل إلى المدينة من غنائم بلاده.

٢- **فيروز:** فارسى، كانت مراجلة تغلى بالحقد على الإسلام، وكان يقول عندما يرى السبايا ويمسح على رؤوسها: أكل عمر كبدى: وكان يختلف إلى الهرمزان الوقت بعد الآخر.

٣- **جفينة الأنبارى:** من نصارى الأنبار، أرسله سعد بن أبى وقاص إلى المدينة ليعلم أبناءها القراءة والكتابة، والأنبار تابعة للفرس، ولجفينة بهم صلة، وكان يختلف الفينة بعد الفينة إلى الهرمزان وأبى لؤلؤة، لأن العداوة للعرب ألفت بين قلوبهم جميعا.

٤- **كعب الأحبار:** من يهود اليمن، ولما رأى اليهودية فى بلاد اليمن اضمحلت

والنصرانية فى بلاد الشام كاد يقضى عليها، ورأى مع ذلك أن الإسلام يعلو ونجمه يتألق، أظهر إسلامه ليستفيد من وراء اعتناقه عزا وجاها بين المسلمين إذا ما ظهر بينهم علمه بالتوراة، وأيام العرب فى الجاهلية وقد كان له ما أراد. فقد قال للمسلمين: إن التوراة فيها علم كل شيء مما كان وما سيكون، وبمكر اليهود ودهائهم أمكنه أن يكتسب ثقة العامة وبعض الخاصة، ولجهل المسلمين فى ذلك الوقت بلغة التوراة، أفاض علينا كعب هذا ثروة من الأخبار الإسرائيلية، ونشر الكثير من الأساطير، نسبها إلى التوراة، ومع الأسف أن بعض هذه الإسرائيليات وصلت إلى الكتب التى بين أيدينا، ومن هذه الأشياء التى نسبها إلى التوراة قتل عمر، والتوراة بين أيدينا، وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه فهو: إما متآمر أو عالم بالمؤامرة.

ورب قائل يقول لو كان الأمر كذلك فماذا يدعو كعبا إلى إخبار عمر بهذا النبأ؟

والجواب على ذلك فى غاية السهولة، وهو أن كعبا كان يعلم أن المسلمين يثقون بعلمه، وبما يخبر به وأنه إذا أخبرهم بمقتل عمر محددا بالأيام والساعات ثم وقع ازدادوا ثقة به، وبإسرائيلياته فينال بذلك مركزا عظيما بين المسلمين وينشر ما يريد من الأساطير التى تفسد عقيدة المسلمين.

ويحسن بعض الكاتبين الظن بكعب فى هذه المسألة فيرى أن كعبا لم يكن شريكا فى المؤامرة ولا يريد قتل الخليفة وإنما ترامت إليه أنباؤها، فأخبر عمر حتى يأخذ حذره من غير أن يصرح بأسماء المتآمرين لخوفه عليهم أو لأمر آخر لا نعلمه، وصاغ الخبر فى قالب مموه ليجعل المسلمين فيما بعد أكثر تصديقا ووثوقا بما يلقيه إليهم من الإسرائيليات.

وقد عرفتم رأينا فيما سبق وهو أن كعبا إن لم يكن شريكا فلا أقل من علمه بالمؤامرة ولو أن التحقيق فى هذه القضية سار على نهج التحقيق فى العصر الحاضر، ووجد محقق ذكى لقبض على كعب بتهمة التآمر على قتل عمر ولاتخذ من إخبار كعب قرينة لاشتراكه مع المتآمرين ويبدو أنه لم يكن للمسلمين سابق عهد بفن التحقيقات الجنائية وكشف المؤامرات السياسية، فلم يتقصوا جميع الدوافع التى أنتجت قتل عمر ومحاسبة المشتركين فى هذه المؤامرة، ولو أنهم هموا بها وفصلوا فيها تماما لاستراح المسلمون فيما بعد من شرور المتآمرين الذين وجدوا فى كعب قدوة لهم.

وقد أثيرت هذه القضية فى عهد عثمان بشكل آخر هو محاولة قتل ابن عمر بمن

قتلهم، أو محاكمته على التعدى على سلطان الدولة بمباشرته القصاص بنفسه دون إذن من الحكومة، وسنتحدث عنها بالتفصيل إن شاء الله.

بقى أمر آخر: وهو لماذا لم يأخذ عمر حذره، بعد أن توعده فيروز؟ وبعد إخبار كعب له؟

يبدو لنا ان عمر كان يرى أن كلام العبد لا قيمة له لأنه لا عصبية له تحميه وأن إخبار كعب مجرد أسطورة، وعمر كان لا يؤمن بالخرافات والأساطير وأن ما قدر كائن، ثم إنه يعتقد أنه يقيم العدالة وينصف المظلوم ومن كان هذا شأنه فلن يفكر أحد فى اغتياله، وهذه فى الحقيقة بساطة وسلامة نية من عمر والمسلمين، وهكذا أراد الله ولا راد لقضائه[1].

إنشاء الدواوين:

إن طبيعة العمران البشرى تتقدم وترتقى إلى الأمام بتقديم العمران البشرى، واتساع رقعة الدولة.

ولا يخفى على دارس التاريخ الإسلامى مدى التوسع والتقدم الذى وصلت إليه الدولة الإسلامية فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ولم يكن لها من الدخل إلا ما يؤخذ من الأغنياء من زكاة وصدقات، وكفارات ويرد على الفقراء، وإلا ما يأتى من الغنائم والفىء، ثم ما كان من الجزية والخراج إلخ من الموارد، بعد أن بسطت الدولة سلطانها على فسيح من البقاع، كما تبين ذلك من الحديث عن الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا، وأخذ الدخل يزداد زيادة كبيرة، الأمر الذى جعل الخليفة يعمل على وجوب ضبطهما، وضبط مستحقيها حتى تتفق عدالة التوزيع مع تعاليم الإسلام وأهدافه، فدعا رضى الله تعالى عنه كبار الصحابة ومجلس الشورى ليعرض عليهم هذا الأمر، وكيف يكون ضبط الدخل وعدالة التوزيع، فقال على بن أبى طالب، يقسم الدخل كل عام ولا يدخر منه شيئا، وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه: أرى مالا كثيرا يسع النفس، وأن يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ، وقال الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت للشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا، وجندوا جندا، فدون ديوانا وجند جندا، فأخذ بقوله، ثم دعا عقيل بن أبى طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من نبهاء قريش، فأمرهم بتدوين الديوان، ففعلوا.

---

(١) راجعوا فى مقتل عمر: الكامل لابن الأثير ج٣ ص ٢٦، ٢٧، ٢٩، والعقد الفريد ج٣ ص ٧١، ٧٢، وتاريخ الفتوح الإسلامية للمرحوم الخضرى ج٢ ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣، وتاريخ الفتوح الإسلامى لفخر الدين ص ٣٣٨ – ٣٤٢، وتاريخ الخلفاء رضى الله عنهم للمرحوم محمود فياض ص ٢٣٩ – ٢٤٢.

كما نشأت فى عهده دواوين أخرى: كديوان القضاء، وديوان للإحصاء وغيرهما مما يدل على فهم عمر بمعرفة كل ما يجب للدولة من إصلاح لحياتها، ومعرفة كل رأى أصيل من غير محاكاة ولا تقليد لمن سبقه.

كما أنشأ البريد: ومرابط للثغور ومصنعا لضرب النقود، ومكانا لحبس الخارجين على قوانين الدولة المستمدة من الشريعة الإسلامية.

وأسند أعمال وإدارة هذا الدواوين إلى أبناء البلاد للإشراف عليها ما دامت بلغاتهم، لأنهم أقدر على القيام بها على الوجه الحسن، كما أنها ليست من أسرار الدولة، وأيضا لأنه لم يكن للعرب خبرة بها فى ذلك الوقت، فإسنادها لهم لن يفى بالغرض المنشود من إنشائها.

وبذلك يكون رضى الله عنه وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، وهو المطلوب فى كل عمل وزمان، حتى يتوافر الإنتاج، والتنافس على هذا المنهج فى عصرنا حتى يعم الخير والرخاء للبلاد.

أما العرب فكانت تسند إليهم الأعمال المناسبة لهم واللازمة للدولة، وهى الدفاع عن الدولة، والجهاد فى سبيل الله تعالى.

إنشاء المدن والتعمير

رأى عمر ﷺ أن الحاجة ماسة إلى إنشاء مدن جديدة، وهذا العمل يحتاج إلى فكر وبعد نظر، ومن يكن لهذا سوى عمر رضى الله تعالى عنه فكانت نصائحه فى تخطيط المدن من أعظم النصائح فى اختيار مواقعها ودواعى بنائها.

ففى سنة ١٦هـ، علم ﷺ أن العرب يشكون برد الشتاء، ويحتاجون إلى مأوى يتقون به البرد بعد عودتهم من الغزو فى فارس.

أمر بإنشاء البصرة:

وأن يختار لها مكانا قريبا من المراعى والماء وأخذ يصف لهم ما يلزم من تخطيطها، وأن تكون متصلة بجزيرة العرب، لا تفصل بينها المجارى المائية حتى يسهل على الخليفة مدهم بالجند وقت الحاجة فبنيت ولم تلبث أن صارت بعد فترة مركزا تجاريا هاما فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى، وحملت لواء العلم والأدب زمنا طويلا وحلت محل المدائن.

إنشاء الكوفة:

وكذلك أمر بإنشاء الكوفة لعدم ملائمة جو المدائن للجند العرب، فقد لاحظ الخليفة فيهم ضعفا وتغيرا فى بشرة وجوههم، فسأل قائدهم (سعدا) ما الذى غير ألوان بشرة العرب؟ فأجابه أنها وخامة المدائن ودجله، فكتب إليه: إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان والأجواء فابعث سلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان فليرتا منزلا بريا وبحريا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر ليكون الطريق بينى وبينكم سهلا، فأرسلهما سعد فاختارا موضع الكوفة غربى الفرات، وخطط الخليفة المدينة بأربعين ذراعا، وما يليها ثلاثين ذراعا، وما بين ذلك عشرين وألا تنقص الأزقة عن سبعة أذرع ليس دونها شيء، وألا يرتفع بناء الدور.

وبنيت الكوفة على هذا التخطيط، وانتقل إليها سعد بجنده وزارء عمرانها حتى أصبحت مدينة كبيرة، وحلت محل "الحيرة" وأصبحت قاعدة لمنطقة العراق الشمالي، وكان الخلفاء يعينون لكل من "البصرة والكوفة" أميرا، ثم انفرد بإمارة العراق كله شماله وجنوبه أمير واحد، ثم أصبحت الكوفة عاصمة لدولة الخلافة كلها فى عصر الخليفة الرابع "على بن أبى طالب" ، وحلت محل المدينة المنورة، وبذلك أصبحت من أهم المراكز السياسية والعلمية فى العالم الإسلامى، ولعله أراد أيضا الحيلولة بين الجند والاستنامة إلى متاع القصور والصروح المردة وما فيها من بواعث الضعف والخمول، كما فى مدن فارس.

كما صارت المدينتان بعد فترة قصيرة من المراكز العلمية والسياسية والاقتصادية الكبرى.

والكتب العربية والإسلامية سجلت الكثير من آراء البصريين والكوفيين وما دار بينهما من جدل حول آرائهم العلمية حتى أصبح لكل منهما مدارس خاصة لآرائهم، وكثيرا ما قرأنا هذه الآراء يرى البصريون ويرى الكوفيون آراء فى اللغة والفقه .. الخ.

وإصلاحات أخرى كثيرة منها: أنه وضع نظاما لمراقبة الأسواق، والنظر فى المكاييل، والموازين مترسما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يترك ثغرة للتلاعب فى أرزاق الناس، بفضل الرقابة الحازمة التى لا تعرف استثناء أو محسوبية، وأقام دارا للضيافة ورتب لها مالا لأبناء السبيل، ومن انقطع بهم الطريق، كما كان لا يغفل عن الرعية ساعة من ليل أو نهار وهو الذى أشار على عمرو بن العاص بحفر خليج بين النيل وبحر القلزم لاتصال مصر بعاصمة الدولة الإسلامية.

فكان رضى الله تعالى عنه على رأس الحكام الأفذاذ، وأعماله تعتبر نموذجا للحكم الصالح، ودستورا يقتدى به الساسة والمصلحون، يؤمن إيمانا عميقا بأن كل راع مسئول عن رعيته عن المريض والجائع والمظلوم والمسكين وابن السبيل حتى صان المجتمع من الفقر والعوز وحتى الحيوان الأعجم لم يحرم من رحمة عمر، فقد كان يتفقد إبل الصدقة فى قيظ الشمس المحرقة شمس بلاد العرب، فإذا وجد منها مريضا بالحكة مثلا (الجرب) عالجه بيده وهو خليفة المسلمين.

وبعد ذلك كان يقول فيما روى عنه "يا ليت أمى لم تلدنى وكنت نسيا منسيا".

وبهذا يكون عمر رضى الله تعالى عنه من أقدر الحاكمين والمالكين فى عصره، وإن حكام العصر الحديث، لا يستطيعون صنع ما تم على يد عمر، ولا وجه للمقارنة أبدا أو المحاكاة.

ويملأ نفسى إعجابا بعمر رضى الله عنه: قول الكاتب الكبير العقاد: "إن هذا الرجل لم تواجهه فى ولاياته الواسعة صعوبة أكبر منه وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته، أو هيبة ودراية أجل مما كان له من هيبة ودراية فإذا عرضت الصعوبة الطارئة، فهناك الحزم اللازم لمواجهتها والحيلة الصالحة لتدبيرها، كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس بهذه الأمور".

وما صنعه فى عام المجاعة لدليل وأى دليل على نهوضه لكل خطب جلل، فقد استجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت – وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين إلى حيث يجد الجياع والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم وآل على نفسه لا يأكل طعاما أفضل من طعام الفقير والمحروم من رعاياه – ومضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت حتى أحس ببطنه تقرقر، فكان يقول: قرقر أو لا تقرقر، فليس لك إلا ما يأكله الناس، وفى رواية عنه حتى يشبع الناس.

وتاريخ عمر رضى الله عنه حظا عظيما من يوم إسلامه حتى كانت الكارثة التى أنهت حياته[1].

* * *

(١) دكتور عبد المقصود محمد نصار: أولئك هم الراشدون – الطبعة الأولى – مطبعة الحسين الإسلامية ص ١٧٧ – ١٨٢.